الأنا في رثاء النفس في الشعر العربى القديم

الرؤية الفكرية والتشكيل الفنى

إعـــداد

الدكتور

إبراهيم إبراهيم محمد العطار

أستاذ الأدب العربي المساعد - معهد اللغة العربية

جامعة أم القرى مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين عليه أفضل الصلاة ، وأتم التسليم .

أما بعد ... ؛

فإن الأدب العربي يزخر عبر تاريخه الممتد في أعماق التاريخ بوفرة شعرائه ، وروعة جمالياته التي شغلت العقول ، وهفت لها القلوب ، لذا تبارى الشعراء فيما بينهم إظهارا لمقدرتهم الشعرية ، وتصرفهم الفني بين أقرانهم في المحافل وبين السماطين ؛ حيث يبدو ذلك واضحا جليا إذ تحفل مصادر الأدب العربي على تنوع مضامينها ، واختلاف عصورها بنماذج شعرية تنم عن مقدرة إبداعية ، ودقة فنية في جماليات التعبير الأدبي ، وروعة الخيال الشعري يتجلى ذلك من خلال دقة اللفظ ورصانته ، وحسن سبكه ومتانته . ينساب ذلك من بين ثنايا فنيات التشكيل الجمالي الذي أتقنه الشعراء ، وصاغوا من خلاله أفكارهم التي تحمل آمالهم وآلامهم ، وأفراحهم وأتراحهم.

ومن هنا فإن أغراض الشعر العربي قد تنوعت فيما بينها ، واصطبغت بألوان شعرائها وما يحملونه في خلجات أنفسهم من مشاعر متدافعة تحمل صاحبها إلى صوغها عبر نسيج لغوي متماسك التراكيب ، وإبداع فني رائع التعبير مع تصوير جمالي وفق نظام موسيقي محكم التقسيم ليس هذا فحسب بل يمتزج ذلك كله مع قسمات الشاعر النفسية .

ومما لاشك فيه أن الأدب العربي غزير في عطائه متنوع في موضوعاته ، فلا غرو في أن نجد رثاء النفس من أهم الأغراض الشعرية التي ينعكس على مرآته آلام الشاعر وأحزانه ، وأنات نفسه وأشجانه لما يمثله ذلك من وقود معنوي يلهب صاحبه ، فينفعل به متأثرا بعاطفته فإذا بها تنتج شعرا رقيقا عذبا

يصدر عن نفس ملتاعة يجذبها الحزن من كل جانب ، فإذا بصاحبها يبوح من خلالها عما يكابده ويعانيه . حقا يسعد الأدب بشقاء الأديب.

يقف الشاعر في تصوير لحظاته الأخيرة في الحياة في برزخ الفكر تارة ، وذكريات الأمس تارة أخرى ، فإذا به يتأمل أحواله متتبعا تصوير آلامه متذكرا أيام صباه وشبابه زاهدا في ماله وميراثه . كل هذه الأفكار تتسارع في نفسه مع إحساسه بدنو أجله فلا يستطيع لها دفعا ، وتزداد معها اللوحة الفنية إيلاما خاصة إذا كان الشاعر في الوقت نفسه يعاني الوحدة والغربة فإذا بصوت نفسه لسان حاله يبوح عن مكنون أسراره .

ومن ثم كان اختيار " الأنا في رثاء النفس في الشعر العربي القديم " مجالا خصبا للبحث والدراسة فصوت الشاعر وظهوره بين ثنايا ألفاظه يثير في النفس تساؤلات فنية ومضامين فكرية أراد الشاعر أن يبوح بها ، لذا كانت الدراسة وفق " الرؤية الفكرية والتشكيل الفني" فرثاء النفس معدن نفيس يزداد بريقا ولمعانا بنيران المحنة وآلام الوحدة ومعاناة الغربة.

لذا تقوم مادة هذه الدراسة على انتقاء نماذج شعرية من الأدب العربي القديم لما تحمله في طياتها من نسيج شعري رائق الأسلوب متين التراكيب يتميز برصانة لفظه ودقته ، وحسن سبكه وجودته في صوغ صور فنية قشيبة تحار فيها العقول ، وتهفو لها القلوب ، وهذه النماذج الشعرية للشعراء " امرئ القيس – طرفة بن العبد – لبيد بن ربيعة – مالك بن الريب – عبدة الطيب – ضرار بن الأزور – عبد يغوث – خبيب بن عدي – يزيد بن خذاق - زيد الخيل – أبي الطمحان القيني " .

ومن ثم كان محور البحث والدراسة " الأنا في رثاء النفس في الشعر العربي القديم الرؤية الفكرية والتشكيل الفني " من خلال مبحثين أساسيين

يعينان الباحث على سبر أغوار الشاعر ولسان حاله في لحظات النهاية المحتومة ، ورصد أناته عبر أبياته وهو يعاني سياط الغربة وآلامها ، وحدة النفس وعذابها من خلال الآتي :

المبحث الأول : الرؤية الفكرية .

المبحث الثاني : التشكيل الفني .

وما توفيقي إلا بالله

يتميز الأدب العربي بعمق جذوره الضاربة في أعماق التاريخ عبر أجيال متعاقبة من أدباء وشعراء أثروا الحياة الأدبية بألوان شتى من بديع المعاني وفنيتها ، وجماليات التشكيل الجمالي وروعته حي يظهر على صفحاته عراقة الماضي وجمال الحاضر .

فقد كان الشاعر العربي القديم مرآة عصره يعبر عن حياة قومه متحدثا بلسانها معبرا عن أحوالها ، ويدافع عنها أمام نظرائه من القبائل الأخرى ، ومن ثم كان احتفاء القبائل العربية عظيما ؛ إذ علموا أن أحد أبنائهم أصبح شاعرا لما يمثله في نفوسهم من عظمة الشأن ، ورفعة المكانة ، فهو سفيرهم ولسانهم في المحافل ينشد شجاعتهم ، ويؤرخ بطولاتهم وفي الوقت نفسه يعدد مناقبهم ، ويهجو أعداءهم ويذكر مثالبهم ، ويقوض أحلامهم .

وقد تنوعت فنون الشعر العربي على اختلاف مضامينها ، وتفرع موضوعاتها من فخر ومدح وهجاء ورثاء ، ومما لا شك فيه أن الشاعر وجد في نظم كلماته نموذجا فنيا رائقا، لذا صاغها في سمط أبياته وفق مضامينه فكانت ترنو أمام ناظريه معايير جودة القصيدة العربية من حيث رصانة اللفظ وفصاحته ، ودقة المعنى وجودته ليس هذا فحسب بل بكيفية إيجاد نظام موسيقي يجمع بين دفتيه المشاعر النفسية للشاعر ومدى ائتلاف ألفاظه وكلماته مع نبض معانيه وعلى هذا " فبعض الأوزان تتفق وحالة الحزن ، وبعضها يتفق وحالة البهجة وما إلى ذلك من أحوال النفس، وعلى هذا فالشاعر حين يعبر عن نفسه خلال الوزن المعين إنما يختار لنفسه أكثر الأشكال الطبيعية تناسبا مع حالته الشعورية وعندئذ يمكن أن يقال إن الوزن رغم أنه صورة مجردة يحمل دلالة شعورية عامة مبهمة ، ويترك للكلمات بعد ذلك تحديد هذه الدلالة " .(١)

ولا غرو في أن يتبارى الشعراء فيما بينهم إظهارا لمقدرتهم الشعرية ، وتصرفهم الفني لذا فقد بلغ عدد منهم في هذا الشأن مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة تشهد مصادر الأدب العربي لهم بذلك ومن هؤلاء ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء .

والشاعر العربي ابن بيئته يبحث بين ثنايا الطبيعة ما يتوافق مع فكرته ورؤيته ، فسرعان ما يحيل ذلك إلى كلمات يصيغها عقله ، وتنقيها قريحته ، وتسمو بها عاطفته فإذا بها تنسج أبياتا متناسقة تأخذ بألباب متلقيها وتصفو لها النفوس لدقة ألفاظها ، وقوة تراكيبها ، وحسن بيانها ، ويزداد تعلق الناس بما يقول الشعراء وفق رصانة ألفاظهم ودقة تعبيراتهم التي تمس شغاف القلوب بعاطفة صادقة تخرج من القلب لتجد لها موضعا في قلب متلقيها ، لذا يعد الرثاء أقرب المضامين الشعرية صدقا للعاطفة فهو يحمل بين طياته أنات الشاعر وزفراته عبر ألفاظ ذات دلالة حزينة وفق تراكيب فنية موحية عبر أساليب لغوية متنوعة ، وبذلك تنبع المشاركة الوجدانية والشعورية بين طرفي الإبداع الشاعر والمتلقي ، فقد " عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي إذ كان النساء والرجال جميعا يندبون الموتى ما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مثنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة ، وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت وأن ذلك مصير محتوم ". (٢)

وقد شغل الرثاء قلوب الناس جميعا – قديما وحديثا – لما يحمله من صدق العاطفة ، وقوة المشاعر مع عذوبة الألفاظ والمعاني الصادقة خاصة إذا كان منزها عن العطاء مختصا ببث أشجانه وأحزانه ، وتصوير الآلام فيمتزج فيه النحيب والنشيج .

وقد اشترط النقاد في الرثاء شروطا وجب على الشاعر المتقن فنه المتصرف في أدواته أن يعي ذلك فيجعل مرثيته شاجية للقلوب دامعة للعيون،

ولا سبيل له في ذلك إلا بصدق العاطفة حيث تحملها ألفاظ موحية ينساب من بين ثناياها ما يجيش في نفس الشاعر من معان تخرج من القلب لتجد لها في قلب المتلقي مكانا " أما الرثاء فيجب أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيرا للتباريح ، وأن يكون بألفاظ مألوفة سهلة في وزن متناسب ملذوذ ، وأن يستفتح فيه بالدلالة على المقصد ، ولا يصدر بنسيب لأنه مناقض لغرض الرثاء ". (٣)

ومما لا شك فيه أن فن الرثاء يعد من أفضل ألوان الأدب العربي ؛ إذ ينبع من خلاله رؤية الشاعر الخاصة وفق تجاربه التي اكتسبها في سنوات عمره أمام عينيه ليصيغ منها معان فريدة تحمل ألفاظها ما تركه الزمان من خبرات وتجارب تبدو قسماتها واضحة الخطوط بارزة للعيان عبر منظومة اللفظ والمعنى في المرثية " أما قصائد الرثاء فلقد اختلطت بالفلسفة وبالحكم والمتأملات والزهد لتصبح دروسا أخلاقية تذكر الإنسان بالقدر المحتوم ، وتدعوه للعمل الصالح قبل أن يضمه التراب " .(٤)

ومن ثم فإن رثاء النفس من أفضل ألوان الرثاء قاطبة لأنه لا رياء فيه ، ولا عطاء من أجله إنما ينبع من مصدر الحياة والموت ، وما يحيط بالشاعر من خواطر نفسية في لحظاته الأخيرة ، وما يعتريه من خوف وقلق يكون لهما عظيم الأثر في نفسه مما ينعكس على رثائه " إن القلق هو انفعال مكدر مرتبط بالشعور بخطر محدق غير واضح للمشاهد والخوف شعور مماثل جدا ينشأ كاستجابة طبيعية لخطر أو تهديد واقعين . "(٥) ومن عجيب النفس البشرية أن الإنسان يظل في سعيه ممنيا نفسه بالآمال كلها حتى إذا حضر الموت تجده أمام شعور عجيب غريب يصعب على أحد أن يدركه لكن الشاعر مع اقتراب موته ، وتيقنه من هذا الأمر تتغلب عليه عاطفته فلا يجد لها مناصا سوى كلمات يقولها في لحظاته الأخيرة لتعبر عما يعانيه ويكابده من مشاعر " إن

الشعور يظل مبهما في نفس الشاعر فلا يتضح له إلا بعد أن يتشكل في صورة ولا بد أن يكون للشعراء قدرة فائقة على التصور تجعلهم قادرين على استكناه مشاعرهم واستجلائها ". (٦)

ومن الملاحظ أن الشعراء أكثروا من الرثاء لما فيه من تفريج للهم ، وكشف للكربات ، وإخراج ما في النفس من مرارة الهم وشدة الحزن " إذا كان الشعراء قد ندبوا أهليهم وذويهم فأولى لهم أن يندبوا أنفسهم حين تحين ساعة الموت ، ولا يجدون لهم ملجأ ولا عاصما وكثير ندبوا أنفسهم ، وبكوها منذ العصر الجاهلي ."(٧) ويروى أن أول من بكى على نفسه ، وذكر الموت على لسانه يزيد بن خذاق بقوله : (٨)

هَلْ لِلْفَتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ من واق؟ أمْ هَل لهُ مِن حِمام الموتِ مِن راق؟

وهذا الشاعر عبدة الطيب قد بكى نفسه بأبيات بعدما طال مرضه وأيقن بالموت ومنها قوله :(٩)

إنَّ الحوادثَ يَخْتَـــرِمْنَ وإنما عُمْرُ الفَتى في أهلهِ مُسْتَـودَعُ

نعم إن الحوادث لا تُبقي بل تقضي على الإنسان ، و يستعين الشاعر بالحكمة التي تظهر فكرته ألا إنها عمر الإنسان بين أهله وديعة سرعان ما تنقضي ، لعل هذا ما يفسر تلك المعاناة التي يكابدها الشاعر في محنته أمام الموت ، وما يعتريه من قلق وخوف " فالقلق هو الانتقال الذي نشعر به عندما نجد أنفسنا محاصرين في ركن ضيق إننا نشعر حينئذ بأننا مهددون على الرغم من أن مصدر التهديد قد لا يكون دائما واضحا لنا . إن الشعور بالخطر مرتبط بالشعور بالخوف والانفعالات المماثلة ". (١٠) لعل هذا ما يفسر قول الشاعر عبد يغوث:(١١)

أَحَقّاً عِبادَ اللهِ أَن لَستُ ســـامِعاً نَشيدَ الرُعاءِ المُعزِبينَ المَتالِيا

فحيرة الشاعر وقلقه على ما أصابه ، وما ينتظره هو ما جعله في هذا القلق المتنامي لذا يبدو عليه الخوف مما آلت إليه الأمور فإذا بالاستفهام في صدر البيت دليلا واضحا لما يكابده من اضطراب وقلق " وإذا كان الشعراء أشد الناس انفعالا وتأثرا وطالما أنهم لا يختلفون عن غيرهم لمسألة الموت الذي يسلب عنهم بعض الأعزاء فإنهم وقفوا كثيرا أمام هذه المسألة الإنسانية ورثوا أحياءهم وأقاربهم وكل من كانوا يهتمون لأمره ."(١٢) فأكثر ما يكون الشاعر صادقا مع نفسه ، وقربا إلى ماهيته في لحظات الموت تلك اللحظات التي تحمل كل ما يراه الشاعر وحده أمام عينيه من حقائق الحياة ، فتزداد النفس ألما ، وتشتد المحنة أكثر إذا كان الشاعر متذكرا أهله خاصة ابنتيه وهما يتمنيان له الحياة وهو مقبل على الموت لكن لا سبيل لذلك على نحو قول لبيد بن ربيعة حين حضرته الوفاة : (١٣)

تمنَّى ابنتـــايَ أنْ يعيشَ أبوهُمَا وهـل أنا إلا مِن ربيعـةَ أو مُضَرْ؟
ونائحتـــانَ تندبـــانَ بِعَـاقـــلٍ أخـا ثقـةٍ لا عيـــنَ منهُ وَلا أثَـــرْ

فالشاعر هنا يقر بحقيقة الموت إنها النهاية في لحظاتها الأخيرة ، ولعل هذا ما جعله يثير سؤالا أداته " هل " يحتاج غلى إجابة تقر نفسه وتهدئ من روعه ، ولا ينسى في لحظاته الأخيرة هذه أن نهايته سيعقبها بكاء ونوح وحزن شديد عبّر عنه بألفاظه ومعانيه ومن هنا " يرتكز البناء الفني على أسس البناء الفكري وقواعده عبر أوعيته المختلفة كل وفق ما يطرقه الشعراء بعيونهم الشاعرة ، وبصيرتهم الثاقبة التي ترصد مفردات الأشياء ، فتجمع شتاتها ليصيغها العقل الشعري قالبا فنيا تمتزج فيه الفكرة باللوحة الفنية ، فتكسب الشعر رونقا فنيا تحفظه العقلية العربية ، وتتوارثه الأجيال "(١٤)

وتتنوع رؤى الشعراء فيما بينهم في تناول مضامين لحظات الموت المقبلين عليها ، فنجدها تتجلى في مظاهر شتى تختلف فيما بينها ظاهرا لكنها

سرعان ما تأتلف في النفس الشاعرة خاصة عندما تمزج مع زفراته الأخيرة وهي على النحو الآتي :

أولا : ذكريات الأهل والديار :

يعرف عن الإنسان الصدق في حديثه أحيانا والكذب أحيانا أخرى إلا أنه في لحظات الموت يكون أصدق ما يكون لما يعتريه في ذلك الوقت من مشاعر مضطربة تحمل في ثناياها ذكريات الماضي بآماله وآلامه ، والخوف من القادم بمجهوله وإبهامه " لعل موتنا نحن أنفسنا هو الأمر الأكثر إثارة للقلق الذي تحتاج الغالبية العظمى منا إلى التوافق معه "(١٥) ومن هذا المنطلق فإن رثاء النفس يحمل في ركابه ذكرى الأهل ، وفراق الأحبة ، وها هو ذا الشاعر عبد يغوث يرثي نفسه بقوله : (١٦)

فَيا راكِباً إمّا عَرَضتَ فَبَلِّغَن ... نَدامايَ مِن نَجرانَ أَن لا تَلاقِيا

أَبا كَرِبٍ والأَيهَمَينِ كِلَيهِما ... وَقَيسًا بِأَعلى حَضرَ مَوتَ اليَمانِيا

جزى الله قومِي بالكُلابِ ملامةً ... صريحهم والآخرين المواليا

وَلَو شِئتُ نَجَّتني مِنَ الخَيلِ نَهدَةٌ ... تَرى خَلفَها الحُوَّ الجِيادَ تَوالِيا

فالشاعر يرثي نفسه وهو مقبل على الموت الذي لا يستطيع له دفعا مما يحمله على استجداء الذكريات ومنه ذكرى الأهل والأحباب وما يصاحبه من حنين اللقاء ، وألم الفراق حيث تهفو نفسه إلى نجران أملا ورهبة ولا سبيل له إلى ذلك فقد أصبح اللقاء بهم أمرا لا يصلحه الزمان ، لعل هذه المعاناة النفسية تركت في نفس الشاعر هموما وأحزانا دفعته للوم أهله وعدم نجدتهم إليه وإخراجه من ذل الأسر خاصة أنه دافع عنهم كثيرا ، وتبدو ملامح الحزن والانكسار في ألفاظه جلية في ندائه للنكرة غير المقصودة " يا راكبا " إذ إنه في حيرة من أمره فلا يعلم إلى من يوجه حديثه ليحمله إلى أهله ، ثم تتدافع

عليه ذكريات الأهل ومواضع حياتهم والمعيشة بينهم كل هذا يضفي إهابا نفسيا ولوحة قشيبة على ألفاظه على نحو " جزى الله قومي بالكلاب ملامة " فمن اللافت للنظر أن الشاعر في حالة يأس شديد تملكه ؛ إذ استخدم أداة الشرط " لو " بما تحمله من معنى امتناع وقوع جواب الشرط لامتناع حدوث فعل الشرط ، وهو ما يعني النهاية المحتومة برغم قدرة الأهل على نجدته من ذل الأسر ، وظلم القتل .

وتزداد النفس آلاما ، وتسقط حسرات على ما أصابها من كرب شديد إذا ارتبط ذكر الأهل بحديث الأبناء خاصة البنات لأنهن ضعاف ، فيُرَى الأب وهو مقبل على الموت يعاني شدة حزنه ولوعة قلبه من هذا الموقف العصيب ، ومن هؤلاء الشاعر عبدة الطيب إذ يقول : (١٧)

ولقد علمتُ بأنَّ قصري حُفرةً غبراءُ يحملُني إليها شَرْجَعُ
فبكَّى بناتي شَجْوَهُنَّ وزوجتي والأقربونَ إليَّ ثم تصدَّعُوا
وتُرِكْتُ في غبراءَ يُكْرَهُ وِرْدُهَا تَسْفِي عليَّ الريحُ حِين أُودَّعُ

يبدو على الشاعر في هذه الأبيات تصدع نفسه فإذا بها تهوي في غيابات الحزن والألم لما يراه من بكاء بناته ، وشجوهن ومن الأقربين إلى نفسه وحزنهم لكن سرعان ما ينتبه الشاعر أن هذا البكاء وهذا الشجو والعويل ما هو إلا لحظات تمر ، ثم يتركونه وحيدا بلا أنيس ولا جليس فما أعظم أن يكره الإنسان ذلك ! فلا صوت إلا صوت الرياح في غبراء لا زرع فيها ولا ماء تلك الوحدة التي يراها الشاعر ماثلة أمام ناظريه مع اقتراب نهايته مع غربته يضفي ذلك على بنائه الفني لوحة باكية نسجتها ألفاظ شجية ، ولا عجب في ذلك إنها الحياة بقدر ما تعطي بقدر ما تقضي .

ومن ثم فهذا شاعر آخر له في رثاء النفس منزلة عظيمة ، ومكانة لا تنكر في هذا المضمار إنه مالك بن الريب فقد أحس بدنو أجله فتذكر الأهل والأحباب ، ورغبته الصادقة في العودة إليهم حيث الغضى وأهل الغضى ، وذكرياته هناك بين الأهل والأحباب ، ومسامرة الأصدقاء وهو يعاني سكرات الموت فينظر حوله فلا يرى أحدا من أهله يسرع له بالطبيب ، أو يذرف عليه الدموع حزنا عليه . يقول : (١٨)

أقلِّبُ طرفي حول رحلي فلا أرى بـه من عيون المُؤنساتِ مُراعيا
وبالرمل منّا نسوة لو شَهِدْنَني بَكينَ وفَدَّيْن الطبيبَ المُداويا
فمنهنّ أمي وابنتاي وخالتي وباكيةٌ أخرى تَهيجُ البواكيا

ما أعظم الخطب ! وما أشد آلام النفس ! فالوحدة والموت والغربة آلام يقاسيها الإنسان فكيف له أن يتحمل هذا ؟ فقد استطاع الشاعر أن يجعل من ألفاظه سياطا يزداد وقعها على نفسه خاصة إذا ارتبط أمر الوحدة والفراق مع البعد عن أقرب الناس إلى نفسه هما أمه وابنتاه مع الباكية التي تبدو في اللوحة وهي تهيج البواكيا لعظم الكارثة ، وموته وحيدا غريبا .

ثانيا : معاناة الغربة وألم الفراق :

تظهر النفس البشرية تجلدها في كثير من الأمور ، وقوة تحملها أمام الشدائد رغبة في الصبر والتجلد لكن سرعان ما ينهار ذلك أمام قسوة الموت ، ويزداد ذلك الأمر وضوحا إذا كان صاحبه شاعرا فالنفس الشاعرة لها أسلوبها وطرائقها التعبيرية التي تنفرد به عن غيرها من النفوس الأخرى ، فإذا بالشاعر كلما اشتدت آلامه أخرج أفضل ما عنده من جماليات النص الأدبي من عذوبة اللفظ وسحر الخيال وإبداع المعاني وروعة التصوير البياني " ومن اللافت للنظر أن المادة الفنية قد تكون واحدة لكن العين الثاقبة ، والقريحة

الصافية تبدع في صوغها يسهم في ذلك القدرة الفنية والتراث الثقافي والفطرة الشعرية الإبداعية لكل شاعر ، فتصبح صورته وأساليبه بصمة فنية يعرف بها "(١٩)

ولا شك في أن لكل شاعر رؤية خاصة تعينه على صوغ فكرته عبر ما يلاقي من أحداث وأمور فقد يكون الألم الذي يعانيه الشعراء واحدا لكن الأداة التي يصيغ بها هذا الألم تختلف وفق موروثه الفني وثقافته الفكرية ، ومن ذلك معاناة الغربة والوحدة في وقت الموت " وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبا من وطنه وديارة ، وينزل به الموت ولا يجد مفرا من لقائه ، وينظر حوله فلا يجد أحدا من أهله فليس معه من سيشيعه ، ولا من سيحفر لحده ، ولا من سيبكيه ويندبه "(٢٠) وممن عانوا آلام الغربة وقسوة الوحدة في لحظات الموت الشاعر امرؤ القيس عندما عاد من بلاد الروم بعدما أعطاه القيصر حُلة مسمومة ، وعندما وصل الشاعر إلى أنقرة لبسها فإذا بجلده يتقطع فأيقن بنهايته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حينما رأى قبر امرأة في سفح جبل عسيب حيث مات ودفن فقال :(٢١)

أجَارتَنَا إنَّ الخُطُوبَ تنوبُ ... وإني مُقيمٌ ما أقامَ عسيبُ

أجَارتَنَا إنَّا غريبانِ هَهُنَا ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

فإنْ تصِلِينا فالقرابة بيننا ... وإن تصرمينا فالغريبُ غريبُ

أجَارتَنَا ما فاتَ ليسَ يَؤُوبُ ... ومَا هو آتٍ في الزَّمانِ قَريبُ

وليس غريبًا مَنْ تناءت دِيارُهُ ... ولكنْ مَنْ وَارَى التُّراب غريبُ

فهذه اللوحة الفنية وتلك المرارة النفسية توحي في النفس ما توحي في النفس ما توحي من آلام تركت قسماتها على نفسية الشاعر في لحظاته الأخيرة حيث الموت يستقر بعيدا عن الديار في وحدة وغربة يدمي لها القلب ، فقد استطاع الشاعر أن يمزج بين حاله وتلك المرأة في قبرها إنها مشاركة نفسية

حيث جمعهما سفح جبل عسيب في غربة ووحدة ، لعل هذا ما دفع الشاعر لنداء المرأة ثلاث مرات " أجارتنا " وهو نداء الملهوف الذي ذهبت نفسه حسرات في غربة موحشة مع آلام مؤلمة فقد استحضر كلمة " غريب " سبع مرات ولنا أن نتخيل ما تحمله هذه الكلمة من معان نفسية تثقل صاحبها بما لا يستطيع ، ومن ثم التمس في نهايتها الحكمة .

وها هو ذا شاعر آخر يبكي فراق الأهل مع معاناة الغربة ، فلا يجد من يبكي عليه إنه مالك ابن الريب حيث يقول :(٢٢)

تذكّرتُ مَنْ يبكي عليَّ فلم أجدْ سوى السيفِ والرمح الرُّدينيّ باكيا
وأشقرَ محبوكاً يجرُّ عِنانه إلى الماء لم يترك له الموتُ ساقيا
غريبٌ بعيدُ الدار ثاوٍ بقفرةٍ يَدَ الدهر معروفاً بأنْ لا تدانيا

إنها أبيات تفيض حزنا وحسرة يبث الشاعر من خلال ألفاظها أناته وشكواه حيث لا صديق ولا رفيق ، ولا حبيب يبكي عليه ، فقد نظر حوله لعله يجد من يشاركه آلامه فلم يجد سوى سيفه ورمحه وفرسه الذي أصبح وحيدا يجر لجامه إلى الماء منكسرا ذليلا بعدما مات صاحبه ، كأن الشاعر رأى في حال فرسه هذا معادلا نفسيا لما أصابه من هم وحزن وألم من وحدته وغربته وهذا ما أكده في البيت الثالث بأنه غريب بعيد الدار يا لها من آلام استطاع أن يجسدها بنسيج فني رائع ، وصور فنية قشيبة موحية عبر تساؤل يحمل في إهابه لآلام ، وأحزان تعصف بصاحبها كيف يبكي السيف والرمح ؟ إن استثارة هذا السؤال لنفس وما يتركه من خيال تسبح فيه مخيلة المتلقي في كيفية إدراك بكاء السيف والرمح وما أضفاه عليهما من تشخيص سر جمال الشعر العربي . إن هذا يجمع جمال اللفظ والمعنى معا.

وثم فارس آخر من فرسان رثاء النفس في الشعر إنه خبيب بن عدي – رضي الله عنه – فقد أرسله النبي – صلى الله عليه وسلم – في سرية من

عشرة رجال ليراقبوا تحركات كفار مكة بعد غزوة بدر الكبرى ، وجعل أميرها عاصم بن ثابت – رضي الله عنه – ومن رجالها خبيب فلما بلغوا ماء الرجيع بين عسفان ومكة وصل نبأهم إلى قوم من هذيل فحاصروهم ، وضربوهم بالنبال فأصيب عاصم واستشهد معه سبعة رجال وأسر خبيب وصاحبه زيد بن الدثنة وأوصلوهم إلى كفار مكة ، فاجتمع عليهم القوم ليقتلوهم فلما أيقن خبيب بالموت قال أبياتا يبث فيها شكواه مما يلاقيه من هم وحزن وخوف وغربة ووحدة ، فلا نصير ولا قريب بل عدو متجهم ، وسهام تتحفز ؛ حيث يقول : (٢٣)

لقدْ جَمَّعَ الأحزابُ حَولي وألَّبُـــوا ... قَبائِلَهُم واستَجْمَعُـــوا كَـــلَّ مَجْمَعِ

وقد جمَّعُوا أبنَـاءَهم ونســـاءَهُم ... وقُرِّبتُ مِـنْ جذعٍ طويـــلٍ مُمَنَّـــعِ

وكلُّهم يُبدي العـــداوةَ جَاهِـــدٌ ... عليَّ لأنِّي في وثَـــاقٍ بمضيـــعِ

إلى اللهِ أشكو غُربتي ثـم كُربتـي ... ومَا أرصد الأحزابُ لي عندَ مَصرعي

يا لها من شجاعة قوم يجتمعون على رجل أعزل مقيد بجزع نخلة لا حول له ولا قوة ، فكل الناس يبدون له العداوة والبغضاء يريدون الفتك به فلا صوت يعلو فوق صوت الدماء ، وتبدو في تلك اللوحة التعبيرية مقارنة نفسية أوردها الشاعر بين حال نفسه وما يعانيه، وحال هؤلاء القوم وما يبدونه من سعادة وحبور للفتك به ، فهو أشبه ما يكون بفريسة وسط السباع ينهشونها من كل جانب بلا رأفة ولا رحمة . إنها صورة فنية رائعة يستطيع المتلقي أن يتتبع نسيجها عبر لوحة فنية متكاملة الأركان فعنصر المكان بمكة المكرمة ، والزمان محدد بنهار أحد الأيام ، وعنصر الحركة موجود في تدافع الناس وحركة الرجال والنساء وتكتمل الحركة ؛ إذ يقيد الشاعر ويشد وثاقه لجذع نخلة مع إظهار استعدادهم للقتل وهذا ما دفعه للقول " إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي " ما أعظمها من كلمات لو أن هناك قلوبا تشعر وعقولا تفهم !

وقريب من هذا المعنى ما قاله عبد يغوث لما أسرته بنو تيم في يوم الكلاب ، وقد علم مقتله ؛ إذ اجتمع القوم لقتله فقال : (٢٤)

وَتَضحَكُ مِنّي شَيخَةٌ عَبشَمِيَّةٌ كَأَن لَم تَرى قَبلي أَسيراً يَمانِيا

استطاع الشاعر في هذا البيت أن يوجد مقارنة نفسية بين حاله ، وحال القوم فهو في ألم وهم وحزن وغربة ، وهم في فرحة وبهجة وحبور ، فالشاعر يوقن بالنهاية وما تحمله من قسمات مؤلمة توجع النفس ، وتدمي القلب على النقيض ترنو تلك المرأة بفرحتها وسعادتها لما تراه . تلك المقارنة النفسية تظهر المعنى المنشود إنها آلام النفس .

وتبدو الدموع بارزة في لوحة أخرى ؛ حيث سرعان ما تسقط من العين في تعبير نفسي صادق عما يعانيه صاحبها من آلام في النفس مع اقتراب الموت ، فتزيد هذه الدموع الحسرة والألم ومعها يشتد الكرب خاصة إذا امتزجت مع الغربة ووحشتها والوحدة وقسوتها . يقول امرؤ القيس : (٢٥)

لَقَدْ دَمَعتْ عَيْنَايَ فِي القَرّ والقَيْظِ وهلْ تدمعُ العَينانِ إلاَّ مِن الْغيظِ ؟

فلَمّا رَأيتُ الشَّرَ ليسَ بِبَـــارِحٍ دَعَوتُ لِنَفْسِي عِندَ ذَلِكَ بِالْفيظِ

استعان الشاعر بأسلوب التوكيد باستخدام " لقد " مع الفعل الماضي وهو ما يؤكد دلالة المعنى بما لا يحمل الشك من شدة الهم والغيظ لما أصابه من كرب وآلام إنها النهاية التي لاريب فيها ، وها هو ذا خبيب بن عدي – رضي الله عنه – تذرف عيناه الدموع لما أصابه من هم الأسر ، وذل القتل والتعذيب . يقول : (٢٦)

وقد خيَّروني الكفرَ والموتَ دونَهُ وقد هَملتْ عيْنَاي من غيـــرِ مَجْزَعِ

وما بِي حذاري الموتَ إنـي لميتٌ ولكن حـذاري جُحْمَ نـــارٍ مُلفَّـــعِ

وهذا شاعر آخر يرثي نفسه ودموعه تنساب من بين عينيه كالمطر فقد ذكر الواقدي أنه ضرار الأزور – رضي الله عنه – عندما أسر في معركة اليمامة فقال وهو في الأسر يبكي نفسه ، وقد تقطعت آماله في الحياة واقترب من الموت : (٢٧)

حَمائِمُ نَجْدٍ بلِّغي قـــولَ شَائِـــقٍ إلـى عسكرِ الإسلامِ والسادةِ الغُرّ
وقولي ضرارٌ في القيـــودِ مُكبَّـلٌ بعيدٌ عنِ الأوطـانِ في بَلدٍ وَعْـرِ
حمائمُ نَجدٍ اسمعي قـــولَ مُفْـرَدٍ غَريبٍ كئيبٍ وهـو في ذِلَّـةِ الأَسْرِ
وإنْ سألتْ عنِّي الأحبَّـــةُ خبِّـري بـأنَّ دُمُـوعي كالسـحابِ وكَالقَطْـرِ
وقـولي لهـم إنِّـي أســـيرٌ مُقَيَّـــدٌ لـهُ عِلَّـةٌ بـينَ الجَوانـــحِ والصَـــدْرِ
وفـي خـدِّهِ خَـالٌ مَحَتْـــــهُ مَدَامـعٌ على فَقْدِ أوطـــانٍ وكَسرٍ بـلا جَبْـرِ
مضَـى سَائرًا يبغـي الجهـادَ تَطَوُّعًـا فوافـاهُ أبنـاءُ اللئـــامِ عَلـى غَـدْرِ
ألا فَادْفِنَـــاني بارِكَ اللهُ فِيكُمَـــا ألا واكْتُبَـا هذا الغريـب على قَبـري

فيا لها من معان صادقة يذكرها الشاعر معبرا فيها عما يجيش في صدره من معان تحمل في ثناياها عظيم حزنه لما أصابه من هم وألم ومعاناة الوحدة والغربة لهذا يطلب من حمائم نجد أن تبلغهم بأن دموعه تنهمر كالسحاب الممطر فيا لها من آلام الوحدة تتلحفها آلام الغربة ، وتستظلها مرارة الأسر لعل هذا ما دفعه ليقول :" ألا واكتبا هذا الغريب على قبري".

وقد يتعجب الإنسان من حال هؤلاء الشعراء كيف لهم بهذه المعاني وهم يعانون اقتراب الموت منهم إنها النفس الشاعرة التي ترى في ألفاظها تعبيرا عن مكنون أفكارها ، وما تفيض به نفوسهم من اضطراب المشاعر وما تجول به صدورهم من معان صادقة .

ثالثا : ذكر الصفات الكريمة عند الموت :

تتعدد أدوات الشاعر الفنية فيما بينها ، وتتآزر بعضها مع بعض في صوغ أفكاره ، وإظهار ما يدور في خلجات نفسه من معان تجد في دلالات الألفاظ معبرا لها نحو المتلقي والمستمع ، ولاشك في أن ذكريات الإنسان تبقى في نفسه منتظرة لحظة خروجها ، وما أعجبها من لحظة فارقة للإنسان ! إنها لحظات الموت ؛ إذ ينتاب صاحبها ذكريات الأمس فترنو أمام عينيه بارزة ، ومن ثم تجري على ألسنة الشعراء في لحظات الموت ، ومن هؤلاء الشاعر مالك بن الريب حيث يقول : (٢٨)

خذاني فجرّاني بثَوبي إليكما ... فقد كنتُ قبل اليوم صَعْباً قِياديا
وقد كنتُ عطّافاً إذا الخيل أدبَرتْ ... سريعاً لدى الهيجا إلى مَنْ دعانيا
وقد كنتُ صبّاراً على القِرْنِ في الوغى ... وعن شَتْميَ ابنَ العَمِّ وَالجارِ وانيا

إنها لحظات الذكريات حيث الحقيقة الماثلة أمام الموت لا حول للإنسان ولا قوة له عليه ، لعل هذا ما أظهره الشاعر بقوله " خذاني فجراني " فقد أصبح بلا قوة جسدا بلا روح فلا يستطيع وقوفا أو دفعا ، ومن هذا المنطلق تطل عليه ذاكرة الأيام بالفعل " كنت " الذي تكرر ثلاث مرات وهو ما يشير إلى دلالة زمنية تحمل معها الحنين نحو الماضي وذكريات الأمس حيث أحاديث البطولة والشجاعة في الحرب والقتال فتبدو في نفسه رغبة لها ورهبة من المستقبل وما ستؤول إليه الأحوال . إنها كلمات تفيض حزنا وألما ينساب من بين ثناياها أنات نفس مكلومة حزينة قضي أمرها.

وهذا شاعر آخر إنه طرفة بن العبد يتخذ من كلماته جسرا حيا ليعبر من خلالها عن مكنون نفسه وسبر أغوارها وتجاذبها بين حديث الأمس وذكرياته وبين حاضره وآلامه التي لا يستطيع

لها دفعا، فقد أوشكت حياته أن تنتهي حيث يقول : (٢٩)

ألا اعتزليني اليوم خولة أو غُضِّي فقد نزلتْ حدبـــاءُ مُحكمة العـــضِ
أزالتْ فؤادي عـــن مَقَرِّ مكانهِ وأضحى جَناحي اليومَ ليسَ بِذي نهضِ
وقد كنتُ جلدًا في الحيـــاة مُدَرَّبًا وقد كنتُ لبَّاس الرجـــال على البُغـضِ
وإني لحلوٌ للخليـــــــلِ وإنَني لمُرٌّ لذي الأضغـانِ أُبـــدي لهُ بُغضي

فالشاعر يقر بمحنته ، وعظيم مصيبته التي أزالت فؤاده عن مقر مكانه إنها النهاية ، وقرب الموت فإذا بالذكريات تتدافع أمام مخيلته ، وتجبر ألفاظه على استحضارها واستجلاء مكنوناتها ، فقد ظهر هذا جليا في دلالة استخدام الفعل الماضي " كنت " و " قد كنت جلدا " و" قد كنت لباس الرجال " فهذا يحمل التوكيد ومعه اجترار الذكريات التي أضحت سياطا تجلد صاحبها وما أقساها ! وهذا الشاعر عبد يغوث يبكي نفسه وما آل إليه حاله وهو من هو بقوله : (٣٠)

أَمعشَرَ تَيمٍ قَـد مَلَكتُم فَأَسجِحـــوا فَـإِنَّ أَخـــاكُم لَم يَكُـن مِـن بَوائِيـــا
فَإِن تَقتُلـوني تَقتُلوا بِيَ سَيِّـــدًا وَإِن تُطلِقـوني تَحرُبـــوني بِمالِيـا
وَكُنتُ إِذا ما الخَيلُ شَمَّصَها القَنـا لبيقًا بِتَصـــريفِ القَنـــاة بَنَـانِيـــا
وَقَد كُنتُ نَحّارَ الجَزورِ وَمُعمِلَ الـ ـمطيِّ وأمضي حيث لاحيَّ ماضيا

وتمتد صفات الشاعر الكريمة التي تتناوب على مخيلته ، وتتدافع على فكرته فتحملها ألفاظه في دقة وعذوبة مع حسن بيان ينطق عما آلت إليه الأحوال ، فهذه تيم قد أجمعت على قتل الشاعر الأسير فإذا به يوقن بموته ، وإذا بذكريات الأمس تبدو جلية من السيادة والشرف والمنعة والقوة في المعارك وأحاديث الشجاعة والكرم ، ومن ثم تمتد اللوحة الفنية وتصطبغ بمزيج من الأسى والحزن نحو الماضي باستخدام ما يعين على ذكرياته بالفعل

" كنت " ودلالته المعنوية فقد ذكره الشاعر مرتين أحدهما يشير لقوته وإقدامه في القتال ، والآخر في بيان كرمه ونحره الإبل للضيوف .

ويتذكر الشاعر مالك بن الريب الأهل والديار حيث موطن الذكريات " أهل الغضى " ويتمنى لو أن الغضى قريب منه ليس ببعيد لأنه يحمل في جنباته ذكريات الصبا وانطلاق الشباب وآماله . يقول : (٣١)

ألا ليتَ شِعري هل أبيتـــنَّ ليلـــةً بجنب الغضَى أُزجي القِلاصَ النواجيا
فَليتَ الغضى لم يقطع الركــبُ عرْضَه وليــت الغضى ماشى الرِّكاب لياليــا
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى مزارٌ ولكــنَّ الغضى ليــس دانيــا

يا لها من ذكريات تثير في النفس شجون الأمس حيث الأهل والأحباب ، وقرب الأصدقاء لعل هذا ما حدا بالشاعر لتكرار كلمة " الغضى " لما لها في نفسه من تأثير معنوي ، وتعلق نفسي لذا كان التمني الذي يستحيل تحقيقه أداته " ليت " فتكتمل به لوحة الألم بذكريات الماضي بـ " لقد كان " وهو ما يشعره بقسوة الحاضر وأمنيات الماضي .

وهذا لبيد بن ربيعة يرثي نفسه بكلمات تفيض بالحزن وهو يتذكر أيامه الخالية وما كان عليه من أمانة وكرم ، وحسن خلق. يقول : (٣٢)

تمنَّـى ابنتـــايَ أنْ يعيشَ أبوهُمَا وهـل أنـا إلا مِن ربيعــةَ أو مُضَـرْ
فقُومَا فَقُـــولا بالذي قد عَلِمْتُمَـــا ولا تَخْمِشَا وَجْهًا ولا تَحْلِقَا شَعَرْ
وقُولا هوَ المــرءُ الَّذي لا خَليلُهُ أضَاعَ ولا خَانَ الصَّدِيقَ ولا غَـــدَرْ

وتمتد لوحة الذكريات نحو الماضي بصفة الكرم التي اتصف بها العربي في رحلة حياته ومن الشعراء من يرى أن كرمه قد امتد للحيوان فغمره بعظيم عطفه ، وجزيل عطائه مما يظهر مروءته ، وحسن خلقه . يقول مالك بن الريب : (٣٣)

تذكّرتُ مَـنْ يبـكي عليَّ فلـم أجدْ سوى السيـفِ والرمح الرُّدينيِّ باكيا
وأشـقرَ محبـوكاً يجرُّ عِنانـه إلى المـاء لم يتـرك له المـوتُ ساقيا
وعزّ قلوصي في الرّكـاب فإنهـا سَتَـفلِقُ أكبـادًا وتُبـكـي بواكيا

ما أجمل أن يمتد الكرم إلى الحيوان! وهذا ما دفع الشاعر نحو الذكريات المؤلمة ، فتزداد وضوحا مع لحظات موته ليتساءل من يبكي علي في وحدتي وغربتي حيث كربتي ؟ فكانت الإجابة من الشاعر لنفسه السيف والرمح لما في ذلك من دلالة الكناية عن معنى الشجاعة والإقدام ، وسرعان ما يتذكر فرسه وكيفية اعتنائه به ، وحرصه على رعايته ليس هذا فحسب بل أيضا ناقته التي سوف تبكي وتظل باكية حتى تبكي ركبها حزنا على فقد صاحبها .

رابعا : تقسيم المال والميراث :

يسعى الإنسان طيلة حياته منشغلا بجمع المال الذي يعينه على صعوبات الحياة ومشقتها ، وإذا بهذا المال ينصرف عن صاحبه سالكا طريقا معبدا سهلا نحو وارثه لعل هذا الأمر هو ما دفع كثيرا من الشعراء إلى إظهار هذه الحقيقة في أشعارهم التي لا شك فيها . إن الأيام تمضي والسنوات تعبر فإذا بالشاعر الذي جمع ماله بكل ما أوتي من قوة يدرك مع دنو أجله أن هذا المال صار لغيره كما صارت حياته فناء . يقول ابن خذاق : (٣٤)

هَلْ لِلْفَتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ مِن واقِ؟ أمْ هَل لهُ مِن حِمام الموتِ مِن راقِ؟
قدْ رجَّلوني ومَا بالشَّعرِ مِن شَعَثٍ وألْبَسُوني ثِيابًا غيرُ أخْلاقِ
وطيَّبُوني وقَالُوا أيُّما رَجُلٍ وأدْرَجُوني كَأنِّي طَيُّ مِخْرَاقِ
وأرْسَلُوا فِتيةً مِن خَيْرِهم حَسَبًا ليُسنِدوا في ضَرِيحِ القَبْرِ أطْبَاقِي
وقسَّمُوا المَال وارفضَّت عوائدُهُم وقَال قَائِلُهُم مَات ابْنُ خَذَّاقِ
هوِّنْ عَليكَ ولا تُولع بإشفاقٍ فإنَّما مَالُنا لِلْوَارثِ البَاقِي

يقر الشاعر في أبياته هذه حقائق ثابتة لا جدال فيها ، فالموت لا دافع له ، وليس له من واق ، ومن ثم فالإنسان سرعان ما ينتهي أمره فيصبح أثرا بعد عين جسدا بلا روح أمره وحركته في غسله وتكفينه في يد غيره يحركه بين يديه كما يريد ، ويحمله لقبره دون سؤاله فيا لها من لحظات يراها أمام ناظريه من بعد قوة وإقدام فإذا به يصير في عالم النسيان .

ولا غرو في أن هذه اللحظات تشكل هما نفسيا وحملا ثقيلا على صاحبها يتخيلها قبل موته ؛ حيث المال الذي جمعه بعد جهد وعناء إلى أين سيذهب فما أكثر السعداء بهذا المال ومن مات مات ، ومن مات فات ، لذا فقد أنهى الشاعر أبياته بالحكمة إن المال للوارث الباقي .

وتستكمل لوحة الموت ولحظات النهاية ، ومشهد تقسيم المال والميراث في مخيلة الشعراء ، فتعلوا أناتهم ، وتتسارع زفراتهم وسرعان ما ينتقل هذا الشعور إلى دلالات ألفاظهم ومعانيهم ، فيبدعوا في تصوير لحظاتهم الأخيرة في الحياة ، وما سيكون عليه الأمر بعد رحيلهم عن الحياة . يقول مالك بن الريب : (٣٥)

ولا تَنْسَيـــــا عهدي خليليَّ بعد مـــا تَقَطُّـــعُ أوصـــالي وتَبلى عِظـاميـــا
ولن يَعـــدَمَ الوالُونَ بَثًّا يُصيـــبهم ولن يَعدم الميـــــراثُ مِنّي المواليـــا
يقولون: لا تَبْعَدْ وهم يَدْفِنـــــونني وأينَ مكـــانُ البُعـــــدِ إلا مَكانيـــــا
غداةَ غدٍ يـــا لهْفَ نفسي على غـــدٍ إذا أدْلجُـوا عنّي وأصبحـتُ ثاويـا
وأصبـــح مالي من طَريفٍ وتالـــدٍ لغيـري، وكان المالُ بالأمس ماليـا

اللافت للنظر في هذه الأبيات مقدار ما تحمله ألفاظها من معان حزينة تتكالب على الشاعر فإذا بكلماته تصدح بما يجيش في نفسه فينعكس عل صفحاتها آلامه وأحزانه من مثل " مقطع أوصاله " وتغير حاله ووحدته في غربته بعد رحيل الركب عنه ، ولا نعدم في اللوحة المعنوية صورة المال الذي

سرعان ما سيؤول لغيره وصوت الشاعر في قوله " وقد كان المال بالأمس ماليا " .

خامسا : الحكمة في رثاء النفس :

تعد الحكمة من أبرز ما يميز الشعر العربي القديم ؛ حيث يجمع فيه الشاعر شتات تجاربه في الحياة وفق رؤية فكرية خاصة تصطبغ بموروثه الشعري ، وتصرفه الفني ، فإذا بلسانه يعبر عما تراه عينه ، وإذا بألفاظه تحمل ما تشعر به مخيلته من معان وأفكار تأتلف فيما بينها ، فتنساب من بين ثناياها روائع شعرية ، وإبداعات أدبية تظهر بجلاء عبقرية ذلك الشاعر .

وتختلف تجارب الشعراء باختلاف طبائع حياتهم ، فقد تكون التجربة واحدة لكن لتعدد روافد الفكر والثقافة عندهم يتبعها بالضرورة تنوع التعامل الفني واختلاف الرؤية الفكرية المتناولة .

إن اقتراب الموت من نفس الإنسان يثير فيه هواجس مضطربة ، ومشاعر قلقة قد يبدو في ظاهرها – أحيانا – الاختلاف لكن سرعان ما تأتلف تلك المشاعر في عقله الشعري ، وتغلفها العاطفة الصادقة ، فتحملها الكلمات الموحية في سياق فني دقيق ، وأطر إبداعية متميزة تنم بجلاء عن نظرة الإنسان الشاعر لوجوده في الحياة ومحنته أمام الموت .

يقول ابن خذاق : (٣٦)

وقسَّمُوا المَال وارفضَّت عوائدُهُم ... وقَال قَائِلُهُم مَـــات ابْـــنُ خَذَّاقِ

هوِّنْ عَليكَ ولا تُولع بإشفـــاقٍ ... فإنَّما مَالُنـــا لِلْوَارثِ البَـــاقِي

يبدو على الشاعر ابن خذاق – وهو أول من بكى نفسه – أنه أتى بذكر المال ومصيره بعد موته وحال ورثته وفرحتهم بهذا المال رغم موت صاحبه ، لذا الشاعر يختتم معناه بحكمة صادقة مؤلمة أن هذا المال لورثته . لقد استعان

الشاعر في إظهار معناه وجلائه لمتلقيه استخدامه " إنما " في " فإنما المال للوارث الباقي " لما تحمله من معنى القصر كأن كل ما يجمعه الإنسان هو في حقيقة الأمر ليس له وإنما للوارث الباقي .

وهذا امرؤ القيس يعبر عن حاله ، وعظيم ألمه لما أصابه من هم وألم ومرض ، ودنو الموت منه أثناء عودته من بلاد الروم . يقول : (٣٧)

لَقَدْ دَمَعتْ عَيْنَايَ فِي القَرِّ والقَيْظِ وهلْ تدمعُ العَينانِ إلاَّ مِن الْغيظِ ؟

إن النفس تتألم ؛ فإذا بألفاظ الشاعر تحمل حزنه . إن العين لتدمع وما دمعها إلا من غيظ ألم بها ، وكانت حكمته مستعينة بأسلوب الاستفهام أداته " هل " لما تحمله من معنى في النفس يقر بمضمون النفي ثم يتسارع الأسلوب ملتمسا الاستثناء بـ " إلا " وفي هذا معنى القصر فهذه المعاناة النفسية التي وقع فيها الشاعر تعد معينا جيدا ، ومثيرا متميزا ، ودافعا قويا للإبداع .

وما زلنا مع امرئ القيس الذي مات في سفح جبل عسيب غريبا بعيدا وحيدا فأنشد يقول مستعينا بالحكمة : (٣٨)

أجَارتنَا ما فـــاتَ ليسَ يَؤُوبُ ومَا هو آتٍ في الزَّمانِ قَريبُ

وليس غريبًا مَنْ تناءت دِيارُهُ ولكنْ مَنْ وَارَى التُّراب غريبُ

تجلت الحكمة وظهرت في أروع ما تكون في ثوب قشيب متميز في البيت الثاني ؛ حيث المعنى الواضح أن الغريب ليس من ابتعدت دياره عنه لكنه من مات في غير أرضه ، ولا غرو في أن نجد أكثر من شاعر يستجدي حكمته إظهارا لفكرته خاصة في الكُرَب الشداد ، وهذا الشاعر عبدة الطيب يقول : (٣٩)

إنَّ الحوادثَ يَخْتَـــرِمْنَ وإنما عُمْرُ الفَتى في أهلهِ مُسْتَـودَعُ

أمر عجيب فالشاعر يقر أن حوادث الدهر هي رسل المنايا ، وهذه حقيقة لا مراء فيها ، ثم سرعان ما يستعين بالحكمة متآزرة بأسلوب القصر أداته " إنما " لبيان أن عمر الإنسان في أهله وديعة سرعان ما تذهب لصاحبها .

ويرنو شاعر آخر هو أبو الطمحان القيني إذ ينطق بلسان الحكمة وهو مقبل على إرهاصات الموت يقول : (٤٠)

إذا راحَ أَصْحابِي تَفِيضُ عُيُونُهُمْ وغُودِرْتُ في لَحْـــدٍ عليَّ صَفائِحِـــي
يقولُـــون هل أَصْلَحْتُمُ لأَخِيـــكُمْ وما القَبْرُ في الأَرضِ الفَضاءِ بِصالحِ

فإن لوحة الشاعر الفنية تمتد إلى رؤية الصحب في مشهد الموت وأعينهم تفيض بالدموع ، وفي جنبات تلك اللوحة نرى الشاعر في لحده وقد سكن لكنه يسمعهم يقولون : هل أصلحتم قبره ؟ فإذا بالحكمة تنساب مجيبة على التساؤل " وما القبر في الأرض الفضاء بصالح " .

سادسا : مشهد القبر :

يعد مشهد القبر نقطة فارقة في حياة الإنسان والشاعر خاصة ؛ إذ يمثل هذا الأمر النهاية المحتومة التي لا رجعة فيها ، فها هو ذا القبر يفتح فاه ليلتهم ساكنه بلا رحمة ولا شفقة ؛ وقد تميز رثاء النفس عند الشعراء بتصوير هذا المشهد الذي يثير في العقل كل التساؤلات أين أنا ؟ وأين أذهب ؟ وكيف سيكون حالي بداخله ؟ وما مصيري إذا ذهب الأهل والأصدقاء عني ؟ إن استثارة هذه الأسئلة في نفس الإنسان يشجي النفس ، وتدمع له العين ، لذا يقف الإنسان أمام جلال الموقف وقفة المتأمل.

فالشعراء في رثائهم أنفسهم يرسمون لوحة مشهد النهاية في القبر بعد الموت ، وقد أصبحوا لا حول لهم ولا قوة جثة هامدة يتجاذبها الناس فيما بينهم وصاحبها مغلوب على أمره . على نحو قول مالك بن الريب : (٤١)

فيا صاحبَيْ رحلي دنا المـــوتُ فانزلا برابيـــــةٍ إنّي مقيـــمٌ لياليـــــا
أقيما عليَّ اليـــوم أو بعضَ ليلـــــةٍ ولا تُعجـــلاني قـد تَبيَّـــن شانِيـــا
وقوما إذا مـــا استـــلَّ روحي فهيّئا لِيَ السِّـــدْرَ والأكفانَ عند فَنائيـــا
وخُطَّا بأطراف الأسنّـــــة مضجَعي ورُدّا على عينـــيَّ فَضْـلَ رِدائيـــا
ولا تحســـــداني بـــارك اللهُ فيكما من الأرض ذات العـرض أن تُوسِعا ليا
خذاني فجـرّاني بثـوبي إليكمـــا فقد كنـــتُ قبل اليـــوم صَعْباً قِياديا

يبدو على الشاعر في هذه الأبيات الحزن والحسرة على ما آل إليه ، فكانت مناجاته صحبه ، ووصيته إياهم ، لعل هذا ما دفعه إلى الاستعانة بأساليب إنشائية من أمر " قوما – خطا – خذاني – جراني " ونهي في " لا تحسداني " إن تنوع الأسلوب الإنشائي هنا يحمل معنى اضطراب نفسه ، وسوء حالته المزاجية مع ما يجيش في صدره من تساؤلات عن كيفية غسله وكفنه وقبره لعل هذا ما دفع الشاعر إلى التماس الرجاء من صحبه أن يوسعا له من الأرض قبرا يكون ساكنه .

ولا عجب في أن يبدو الشاعر معبرا عن نفسه ، ومصورا حاله في هذه اللوحة عبر الضمير المتصل المفعول به " خذاني فجراني " إن هذه المقارنة النفسية تظهر في الوقت نفسه بذكر حاله من قبل ذلك بقوله " فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا " ، ونجد مشهد القبر عند ابن خذاق يسلك اتجاها آخر ألا إنه مشهد دفنه حيث يقول:(٤٢)

قدْ رجَّلوني ومَا بالشَّعرِ مِن شَعَثٍ وألْبَسُـوني ثِيـابًـا غيـرُ أخْـــلاقِ
وطيَّبُـوني وقَـالـوا أيُّما رَجُـــلٍ وأدْرَجُـوني كَأنّـــي طَيُّ مِخْـرَاقِ
وأرْسَلُوا فِتيـــةً مِن خَيْرِهم حَسَبًا ليُسنِدوا في ضَرِيـحِ القَبْر أطْبَاقِـي

كيف لهذا الشاعر أن يتخيل حاله ، ويصف نفسه وهو في هذا المشهد من غسله وكفنه ، وما وضعوا عليه من الطيب ، ثم تصوير دقيق وهم يدخلونه

القبر ؟ هذا أمر فيه عنت ومشقة وفيه ألم للنفس يحمل من قسمات الحياة وتجارب الموت ما يحمل .

المبحث الثاني : التشكيل الفني :

يتنافس الشعراء فيما بينهم إظهارا لمقدرتهم الشعرية ، وتصرفهم الفني عبر طرائق الإبداع الأدبي ، ووفق أساليب فنية رشيقة من رصانة في اللفظ ، وعذوبة في المعنى ينساب ذلك عبر أسلوب أدبي متميز تختلف فيه أدوات الشعراء كل يتبع موروثه الفني ، وثقافته الفكرية ، ونظم إبداعه . يقول الجاحظ : " فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي (والمدني) وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخيل اللفظ ، وسهولة المخرج (وكثرة الماء) وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من الخيال ". (٤٣)

ومن ثم فإن الشعراء يقدحون زناد فكرهم ، ويطلقون عنان خيالهم للتعبير عن طرائق إبداعهم وفق أساليب فنية متميزة ، وألفاظ عذبة موحية ، وصور وأخيلة قشيبة تأخذ بالألباب ، وتهفو لها النفوس لذا " يعد الأسلوب وسيلة فعالة في العمل الأدبي حيث يقوم بحلقة الوصل بين المبدع والمتلقي فهو يحمل الفكرة بمعناها في إطار مميز يعبر من خلاله الشاعر عن انفعالاته ومشاعره ، وبذلك يتم المزج الشعوري بين المبدع والمتلقي حيث تنتقل عاطفة الشاعر من فرح أو حزن أو غيرهما إلى المتلقي ؛ عبر ألفاظ رشيقة منتقاة في قالب فني متين التراكيب حسن السبك فيحدث به الامتاع الفني ". (٤٤)

ومما لاشك فيه أن الشعراء يكابدون أفكارهم ، ويمتطون ركاب خيالهم بحثا عن عناصر الفكرة التي قد تبدو مضطربة في نفوسهم متنافرة في عقولهم ، فإذا بعبقرية الشاعر الفنية تمزج ذلك ، وتجمع شتات الفكرة ، وإذا بالخيال

الشعري ينسج جماليات المعنى وفق طرائق أسلوبية تعبيرية يحدث من خلالها الحيوية الفنية بين طرفي معادلة الإبداع الشاعر والمتلقي .

ولكل شاعر طريقته الفنية التي يعرف بها ومسالكه الأسلوبية التي تعارف عليها ؛ إذ ارتضاها لنفسه وجعلها طريقا معبدا نحو هدفه ، ورؤية فنية تحمل جماليات النص الشعري " فعدم وجود الأسلوب حاصل من اختلاف كل مبدع في طريقة اختيار الألفاظ ، وتأليف التراكيب ووضع الإطار الموسيقي الملائم ، وإضافة ألوان البديع ونحو ذلك ، وبناء عليه نحكم بجودة العمل الأدبي أو رداءته ". (٤٥)

لذا فإن النفس الشاعرة ترى في ألفاظها تعبيرا صادقا عن مكنون أفكارها ، وما تفيض به من اضطراب مشاعرها وأحاسيسها " إن النفس تصنع الأدب ، وكذلك يصنع الأدب النفس . النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب ، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس ، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا ، وهما حين يلتقيان يضعان حول الحياة إطارا فيصنعان لها بذلك معنى ، والإنسان لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى " (٤٦) لذا يتنوع التركيب اللغوي والأسلوب الفني في الشعر العربي وفق كل شاعر ورؤيته وتجاربه في الحياة خاصة في لحظة إبداعه ، ولا يوجد أفضل من لحظات النهاية في حياة الإنسان بما تحملها من صدق المشاعر ، وعظم التجربة التي تنبع من معاناة سكرات الموت ، ولحظاته الأخيرة .

تأخذ الأفكار الشعراء ، وتتلاعب بعقلهم المشاعر فيبدو أمرهم مضطربا ، وتذهب أنفسهم حسرات فيستعينوا بأساليب فنية يلتمسونها التماسا فإذا بها تمثل جسرا يعبر من فوقه كل ما يذور في خلجات أنفسهم من آمال

ضائعة ، وأحلام مفقودة ، وذكريات باقية تلقي بظلالها على قسماتهم النفسية في هذه الأوقات العصيبة .

أولا : أسلوب الالتفات :

يعد الالتفات من الأساليب التي لها مدلول في نفس المتلقي حيث تثير ذهنه ، وتجذب انتباهه ، وينشط لها عقله في رحلة تتبعه نسيج الشاعر اللغوي ومغزاه المعنوي ذلك وفق طرائق التعبير بالضمائر ومدلولاتها " فالالتفات أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك ، أو ظن أن رادا يرد قوله ، أو سائلا يسأله عن سبب فيعود راجعا إلى ما قدمه فإما أن يؤكده أو يذكر سببه ، أو يزيل الشك عنه " (٤٧)

ويتعاون الالتفات مع غيره من الأساليب التي تزيد المعنى جلاء ، وتثبته في نفس المتلقي من نداء وتوكيد وشرط على نحو قول عبد يغوث : (٤٨)

أَمَعشَرَ تَيمٍ قَد مَلَكتُم فَأَسجِحوا ... فَإِنَّ أَخاكُم لَم يَكُن مِن بَوائِيا

فَإِن تَقتُلوني تَقتُلوا بِيَ سَيِّدًا ... وَإِن تُطلِقوني تَحرُبوني بِمالِيا

وَكُنتُ إِذا ما الخَيلُ شَمَّصَها القَنا ... لبيقًا بِتَصريفِ القَناةِ بَنانِيا

يظهر الالتفات في هذه الأبيات جليا حيث استعان الشاعر بتعدد استخدام الضمائر ومدلولاتها المعنوية أثناء حديثه مع قاتليه من قبيلة تيم تارة بخطابهم " ملكتم – أخاكم " " تقتلوني " ، ثم سرعان ما يضع نفسه بضمير المتكلم المفعول به بدل عنه في " تقتلوني تقتلوا بي سيدا " وقوله : " وإن تطلقوني تحربوني بماليا " ، وينتقل الشاعر إليهم إلى التكلم عن نفسه ؛ حيث تتدافع عليه الذكريات بقوله :" وكنت إذا ما الخيل شمصها القنا لبيق " فهذه الانتقالات السريعة بين الضمائر من مخاطب إلى متكلم إلى غائب إنما يحمل دلالة معنوية أن نفس الشاعر تتقاذفها أنواء الخطر ، وتجترها الأحزان فتنثال

عليه المعاني انثيالا لا يستطيع لها دفعا مما يشير أننا أمام نفس قلقة مضطربة تعاونت أساليب شتى في إبرازها من مثل النداء " أمعشر تيم " والتوكيد في البيت نفسه بـ " إن " في قوله : " إن أخاكم لم يكن من بوائيا " ثم تزداد تلك النفس المضطربة اضطرابا ؛ حيث استعانت بالشرط الذي تكرر في البيت مرتان " فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا وإن تطلقوني تحربوني بماليا" إن تنوع الأساليب وتعدد أنماطها ودلالاتها إنما هو صدى لمشاعر الاضطراب والرهبة والخوف في نفس قائلها .

ومن ذلك النمط الفني يقول خبيب بن عدي – رضي الله عنه - : (٤٩)

لقدْ جَمَّعَ الأحزابُ حَولـي وألَّبُـوا قَبائِلهُم واستَجْمَعُـــوا كُلَّ مَجْمَعِ
وكلُّهم يُبدي العـــداوةَ جَاهِـــدًا علـيَّ لأنّـي في وثـــاقٍ بمضيـــعِ
وقد قرَّبُوا أبنَـــاءَهم ونســاءَهُـم وقُرِّبتُ مِنْ جذعٍ طويـــــلٍ مُمَنَّـعِ
إلى اللهِ أشكو غُربتي ثـم كُربتي ومَا جمَّعَ الأحزابُ لي عندَ مَصرعـي

لا يخفى على قارئ هذه الأبيات تلك الانتقالات الأسلوبية الجيدة وتنوعها من ضمير المتكلم " حولي – علي – لأني – غربتي – كربتي – مصرعي " وظهور ضمير الغائب أيضا في " قبائلهم - أبناءهم – نساءهم – كلهم "فهذا الحشد من الضمائر وتنوع مدلولها المعنوي يبدي ما في نفس الشاعر من اضطراب وحزن وفق تلوين أسلوبي متميز ينعكس على صفحته الحالة النفسية التي أظهرها في موازنة دقيقة بين حاله ، وحال قاتليه وفرحتهم أعانه على هذا فطرته الفنية وذكائه الشعري في تجاوز أوقات المحنة النفسية ليعبر عنها وفق نسيج شعري متماسك الكلمات في حسن سبك لغوي مع وضوح للمعنى في ثوب فني قشيب يدفع متلقيها للمشاركة الحيوية بها ومن ثم تترك قسماتها عل نفسه بما تحمله من معان .

ثانيا : الحوار في رثاء النفس :

يعد الحوار من أهم العناصر التي تضفي على العمل الأدبي حيوية النص ، وجمال المعنى ؛ حيث يظهر مكنون النفس الشاعرة من معان ورؤى وأفكار في بوح مباشر يحمل في طياته أنات الشاعر ، وشكواه في لحظات الموت إلى الصديق ، ولا يغفل القارئ أن هذا الحوار ينساب بين ثناياه مرارة الألفاظ ، وحرقة النفس حيث الموت الذي يطرق الأبواب . يقول مالك بن الريب : (٥٠)

ولمّا تراءتْ عند مَروٍ منيتي وحلَّ بها جسمي، وحانتْ وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فإنّه يَقَرُّ بعينيْ أنْ سُهَيْلٌ بَدا لِيا
فيا صاحبَيْ رحلي دنا الموتُ فانزِلا برابيةٍ إنّي مقيمٌ لياليا
أقيما عليَّ اليوم أو بعضَ ليلةٍ ولا تُعجلاني قد تَبيَّن شانِيا
وقوما إذا ما استلَّ روحي فهيّئا لِيَ السِّدْرَ والأكفانَ عند فَنائيا
وخُطَّا بأطراف الأسنّة مضجَعي ورُدّا على عينيَّ فَضْلَ رِدائيا
ولا تحسداني بارَكَ اللهُ فيكما من الأرض ذات العرض أن تُوسِعا ليا
خذاني فجرّاني بثوبي إليكما فقد كنتُ قبل اليوم صَعْباً قِياديا

تلك لوحة فنية متكاملة الأركان فيها حديث الأصدقاء ، وفيها حيوية الحركة ، وفيها حسن البيان حيث استعان الشاعر بالحوار عندما أحس بدنو أجله ، وقرب موته بقوله : " أقول لأصحابي " فهذا القول امتد عبر أبيات متتابعة أشبه ما يكون بوصية ميت يوصيها لأصحابه قبل الرحيل فهو يرجوهم أن يرفعوه ليرى نجم سهيل لعله يرى فيه منازل الأهل والأحباب ، كما يطلب منهم البقاء فوق رابية يشعر أن قبره فيها مستعينا بالفعل الأمر في أبياته راجيا متوسلا صحبه بقوله : " أقيما – قوما – خطا – ردا – خذاني " ليس هذا

فحسب بل استعان بالنهي بقوله : " لا تعجلاني – لا تحسداني " وقد استعان من قبل بالنداء بقوله : " فيا صاحبي " إن هذا التتابع في الأساليب من نداء وأمر ونهي يمتزج ذلك كله بذكرى الأمس في " فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا " إنما يصدر عن نفس ملتاعة يتملكها الأسى ، ويحيط بها الأحزان من كل جانب يبدو هذا في دلالة الألفاظ " هيئا لي السدر والأكفان عند فنائيا " و " ردا على عيني فضل ردائيا "فيا لها من لحظات كابدها الشاعر وحملتها ألفاظه ، وأظهرتها أساليبه وطرائق تعبيره .

وينتقل الحوار في ملمح آخر ليعبر عن وصية الشاعر لبيد بن ربيعة إلى أهله وقد أيقن الموت ، فبدت ألفاظه تحمل قسمات نفسه وظهر حواره مع أهله حوار الوصية والأمنية التي عز عليه أن يدركها . يقول : (٥١)

تمنَّى ابنتـــايَ أنْ يعيشَ أبوهُمَا وهل أنا إلا مِن ربيعةَ أو مُضَرْ؟
فقُومَا فَقُـــولا بالـذي قـد عَلِمْتُمَـا ولا تَخْمِشَـا وَجْهًـا ولا تَحْلِقَـا شَعَـرْ
وقُولا هوَ المــرءُ الَّذي لا خَليلُـهُ أضَاعَ ولا خَانَ الصَّدِيقَ ولا غَـدَرْ
إلى الحولِ ثم اسمُ السَّلامِ عَليكُمَا ومَنْ يَبْكِ حَوْلًا كَامِلًا فقدْ إعْتَذَرْ

ومما يزيد النفس إيلاما ذكري البنات وترك الأحباب ، وبرغم ما يظهره الشاعر من التجلد وبيانه أن الموت حقيقة لا ريب فيها فقد أسرع إلى ابنتيه بالحوار مستعينا بالأمر لما يحمله من وصية ونصيحة معا على نحو " فقوما – فقولا – وقولا " هذا الرجاء الذي ساقه الحوار يحمل مدى معاناة الشاعر الأب نحو بناته وفقدهن ، فيخبرهما كرم أخلاقه ، وعلو همته وعيشته الكريمة بين الناس لذا يطلب منهما بالحوار مستعينا بالنهي " لا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر " وسرعان ما ينهي حديثه مع ابنتيه بأسلوب الشرط لبيان منزلته حيث يقول : " ومن يبكي حولا كاملا فقد اعتذر ".

وهذا الشاعر أبو الطمحان القيني يستعين بالحوار لإظهار مأساته وعظيم ألمه ؛ إذ يقول : (٥٢)

إذا راحَ أَصْحابِي تَفِيضُ عُيُونُهُمْ وغُودِرْتُ في لَحْـــدٍ عليَّ صَفائِحِـــي

يقولُـــون هل أَصْلَحْتُمُ لأَخِيـــكُمْ وما القَبْرُ في الأَرضِ الفَضاءِ بِصالحِ

إن الشاعر لم يكن طرفا في هذا الحوار ولكن نقل الحوار عن أصحابه ، وما سمعه منهم في لحظات موته ولحده ، فقد نسج لوحة فنية تفيض حيوية لمشهد الصحب والدموع تفيض في عيونهم ، هذا وقد استقر الشاعر في لحده منتظرا إغلاقه عليه فإذا به ينصت إليهم في حديثهم ؛ إذ يقولون " هل أصلحتم لأخيكم ؟ "لعل هذا ما جعله يجيب من قبره ولسان حاله يقول : " وما القبر في الأرض الفضاء بصالح" إنها حكمة تحمل أنات النفس البشرية في أقسى لحظاتها إنها معاناة الموت ، ووحشة القبر .

ثالثا : الاستفهام في رثاء النفس :

تعد الأساليب الإنشائية على اختلاف أنماطها ، وتنوع مفرداتها أداة طيعة في أيدي الشعراء ينسجون من خلالها طرائق إبداعهم ، وروعة فنهم " لقد استطاع الشعراء القدماء أن يعبروا عن انفعالاتهم تحت ظلال أساليبهم ، وقد ظهر التلاؤم واضحا جليا بين الانفعالات النفسية والأساليب الفنية ، ومن هذه الأساليب الأسلوب الاستفهامي الذي يصدر عن نفس قلقة وانفعالات غير مستقرة ."(٥٣)

ونجد كثيرا من الشعراء الذين تناولوا رثاء النفس في أشعارهم ينطلقون عبر نفس ملتاعة حزينة تشابكت طرقها في لحظاتها الأخيرة من شدة خوفها ، وعظيم جزعها فإذا بالاستفهام يطل برأسه من بين ثنايا الألفاظ والمعاني ليؤكد

أن الشاعر في حاجة ماسة إلى صديق يجيبه عما يكابده لعلهم في ذلك يلتمسون راحة النفس وهدوء القلب.

وتتعدد أدوات الاستفهام وتتنوع فيما بينها ، ولكل منها مقصد وغاية . يعلم الشاعر المتقن فنه المتصرف في أدواته مدلولها المعنوي متى وأين تستخدم ؟ إن التساؤل الذي يطرحه الشاعر في أبياته ينبع من تساؤل نفسه ذاته لعل هذا يعينه على فهم الحقيقة وتقبلها .

فهذا الشاعر ابن خذاق يسأل عن واق يحصنه ويحميه من الموت فهل من مجيب حيث يقول : (٥٤)

هَلْ لِلْفَتَى مِن بَناتِ الدَّهْرِ مِن واقِ؟ أمْ هَل لهُ مِن حِمام الموتِ مِن راقِ؟

من اللافت للنظر أن الشاعر استخدم أداة الاستفهام " هل " في غير موضع وهذا التساؤل يحتاج إلى إجابة من المتلقي بالإيجاب أو بالنفي ، ومعنى هذا أن الشاعر أدرك في أبياته دلالات الاستفهام ورسالته داخل النص الشعري من إضفاء الحيوية الفنية داخل العمل من خلال المشاركة الفنية بين الشاعر ومتلقيه .

ويحمل الاستفهام بـ " هل " دلالة النفي في هذا البيت ، وهذا يظهر أن الشاعر في حالة يأس وحزن فلا نجاة للمرء من حوادث الدهر ولا وقاء من حمام الموت.

وقد يستعين الشعراء بالاستفهام المنفي لما فيه من دلالة معنوية واضحة عن مقصود معنى صاحبه ، وقد كان لهذا الاستفهام وظيفة فنية تسهم في إبراز المعنى ، وجلاء الفكرة مع استنفار العاطفة . يقول الشاعر مالك بن الريب : (٥٥)

ألم ترَني بِعتُ الضلالةَ بالهـدى وأصبحتُ في جيش ابـن عفّانَ غازيا ؟

فقد استخدم الشاعر الاستفهام المنفي أداته " ألم " لتقرير أمر في نفسه ؛ إذ يطلب من المتلقي تصديق قوله والتثبت منه لأنه أمر واقع . فإن استخدام الاستفهام بالهمزة والنفي بـ " لم " يحمل معنى التقرير والتثبت بما سيقال ، وهذا دليل على حدوثه بواسطة الفعل في زمن الماضي ؛ حيث كان الشاعر على ضلالة فأصبح على هدى بانضمامه لجيش المسلمين . إنها حقيقة ماثلة تجول أمام ناظريه تحمل عبق الزمان في ماضيه وذكرياته وبين حاضره وآلامه لعل هذا التساؤل وما ينتظره من إجابة عليه يخفف مما يعانيه الشاعر في تصوير نفسه الملتاعة ، وهذا الشاعر عبد يغوث يستعين أيضا بالاستفهام المنفي لمعنى في نفسه معروف إذ يقول : (٥٦)

ألا لا تَلوماني كَفى اللَومَ ما بِيا ... وَما لَكُما في اللَومِ خَيرٌ وَلا لِيا

أَلَم تَعلَما أَنَّ المَلامَةَ نَفعُها ... قَليل وَما لَومي أَخي مِن شمالِيا ؟

فالشاعر استخدم الاستفهام المنفي " ألم تعلما " وهو يوجه حديثه لصاحبيه إظهارا لكرمه ، وحسن خلقه كأنه ينشد ذكريات نفسه وأحداثها، وما قدَّمت من خير لعله يجد السلوان في العزاء.

رابعا : تكرار الكلمات في رثاء النفس :

يلتمس الشاعر أدواته الفنية بحثا عن أسرارها متأملا كلماته متتبعا معانيه حتى يصل بفكرته وفنه لمتلقيه ، فهو يسبر أغوار عقله في رحلة نسجه أبياته ممنيا نفسه بدقة معناه ، وجمال صورته .

ومن اللافت للنظر أن شاعر الرثاء يتميز بصدق المشاعر ، ورصانة اللفظ ودقة المعنى في بوح مباشر يحمل ما في عاطفته من معان ينبع من صداها المشاركة الفعالة الحيوية بينه وبين المتلقي خاصة إذا تداعت عليه الذكريات ، وحاصرته الآلام من كل جانب هنا تتكاثر عليه المعاني ، وتعز

عليه الكلمات فلا وقت للتأمل بل الزمن يمضي ، والموت يطرق الأبواب ، ومن هؤلاء الشعراء مالك بن الريب الذي أدرك لهفته ، وعظيم ألمه مما أصابه من هم وحزن ونهاية كتب الدهر سطورها الأخيرة ، فإذا بالمعاني تنثال عليه انثيالا لكن الألفاظ لا تأتيه سهوا و رهوا ، لذا يستعين الشاعر بكلمات محددة يكررها رغبة منه أن تعينه على إخراج ما في نفسه تنفيثا عنها ، وتفريجا لكربها ، ومن ثم تكثر الأمنيات وتصاحبها الذكريات . يقول : (٥٧)

فللـــــهِ دَرّي يـــوم أتـــركُ طائعًـا بَنـــيّ بأعلى الرَّقمتَيـــنِ ومـاليـا
ودرُّ الظبَّـــاء السانحات عشيـــةً يُخَبّـــرنَ أنّي هالـــك مَـنْ ورائيـا
ودرُّ كبيـريَّ اللذيـــــن كلاهمـا عَليَّ شفيـــقٌ ناصـح لـــو نَهانيـا
ودرّ الرجـــال الشاهديـــن تَفتُّكـي بأمريَ ألاّ يَقْصُـــروا مـن وَثـاقِيا
ودرّ الهوى من حيث يدعو صحابتي ودرُّ لجاجاتـي ودرّ انتِهائيـــا

يشعر القارئ من الوهلة الأولى أنه أمام شاعر تذهب نفسه حسرات وهو يجتر ذكرياته ويعدد أمانيه وحسرة الحزن تعتصر قلبه وهو يتابع ذكريات الأمس بكل ما تحمله من انطلاق الشباب وسعادة الصبا لكن الموت باغته واشتد في طلبه لعل هذا ما جعل الشاعر يلتمس قافية " يائية " موصولة بالألف بوصفها متنفسا له يعينه على إخراج همه ، وما يجيش في صدره مع حركة الهواء في شهيقه وزفيره ، وها هي أمنياته تتكرر مع كل بيت في مستفتحه " لله در " متآزرة مع ذكرياته لعله يجد فيها السلوى .

ويبدو أن الشعراء في لحظاتهم الأخيرة أمام الموت يلتمسون تعبيرات استفتاحية عرفت فيما بينهم في تناولهم أشعارهم وهي " ألا " حرف استفتاح يثير الذهن ويجذب الانتباه لما سيأتي من لفظ ومعنى . يقول عبد يغوث :(٥٨)

ألا لا تَلوماني كَفى اللَومَ ما بِيا وَما لَكُما في اللَومِ خَيرٌ وَلا لِيا

فالشاعر هنا تمتلك نفسه الآلام وتتكاثر عليه الأحزان فاستعان بـ " ألا " لينشط بها ذهن المتلقي وهو في معرض حديثه لصديقيه ناهيا إياهما عن اللوم بل راجيا ذلك مستعينا بقوله : " وما لكما في اللوم خير ولا ليا " .

ويرى الشاعر أبو الطمحان القيني " ألا " مفتتحا طيبا ليبث من خلاله أنّاته وأحزانه قبل خروج الروح من الجوانح ، و نوح النوائح . يقول : (٥٩)

ألا عَلِّلانِي قَبْل نَـوْحِ النَّوائِـحِ وقَبْلَ ارْتِقاءِ النَّفْسِ بَيْنَ الجَوانِـحِ
وَقَبْلَ غَدٍ، يا لَهْفَ نَفْسِي على غَدٍ إذا راحَ أَصْحـابِي ولَسْتُ بِرائِـحِ
إذا راحَ أَصْحابِي تَفِيضُ عُيُونُهُمْ وغُودِرْتُ في لَحْـدٍ عليَّ صَفائِحِي

استعان الشاعر في استفتاحه أبياته بـ " ألا " وهذا ما عهده كثير من الشعراء إبرازا لأهمية ما سيأتي بعدها من معنى ظهر في نفسه التي ذهبت حسرات في مشهد أتقن الشاعر صوغه إنه مشهد الوحدة بلا جليس ، ولا أنيس بعد رحيل الأصدقاء " إذا راح أصحابي " تكررت في أبياته لما تحمله من دلالة معنوية قاسية على النفس تلقي بظلالها على قلب الشاعر حيث ظلمة القبر ووحدة النفس ، ومن شدة جزعه قال : " وقبل غد يا لهف نفسي على غد " وهذه العبارة عينها استخدمها مالك بن الريب بقوله : (٦٠)

غداةَ غدٍ يـا لهْفَ نفسي على غـدٍ إذا أدْلجُـوا عنّي وأصبحتُ ثاويا

إنها المعاني تتقارب فيما بينها لتتشابه في أحداثها ، وتأتلف في ألفاظها .

خامسا : استخدام الجملة في رثاء النفس :

ينبري الشعراء كل وفق أدواته ، وموروثه الفكري والثقافي في التعبير عما يدور في خلجات أنفسهم من أسرار وأفكار ، لذا فالشعراء يختلفون فيما

بينهم في استخدام أدواتهم من ألفاظ ونظم سبكها ، وطرائق التراكيب ودقة تماسكها .

ومن ثم كان الإهتمام بالحدث أكثر ما يشغل شعراء الرثاء فانطلقوا في صوغ تراكيبهم من الفعل لما يحمله من مدلولات زمنية تعينهم على استجداء الماضي ، واستجلاء الحاضر فقد اقتضت " العقلية العربية أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير في التعبير لأن العربي جرت سليقته ، ودفعته فطرته إلى الاهتمام بالحدث في الأحوال العادية الكثيرة ، وهي التي لا يريد فيها أن ينبه السامع إلى الاهتمام بمن وقع منه الحدث ، أو التي لا يهتم هو فيها بمن وقع منه الحدث فالأساس عنده في الأخبار أن يبدأ بالفعل ."(٦١)

وقد التزم شعراء رثاء النفس بالجملة الفعلية في أكثر تعبيراتهم متلمسين في الفعل قيمة الحدث ، وما أعظمه من حدث ! إنه الفراق ، لذا وجد الشعراء ضالتهم في استخدام الجملة الفعلية خاصة الفعل الماضي لما له من عظيم الأثر في نفس المتلقي ؛ إذ يحمله على إقرار الحدث ، وتمكينه في نفسه عبر التلوين الأسلوبي ، والتتبع الزمني بين ذكريات الماضي وآلام الحاضر ، وفقد المستقبل . يقول طرفة بن العبد :(٦٢)

ألا اعتزليني اليوم خولة أو غُضِّي ... فقد نزلتْ حدباءُ مُحكمة العضِ
أزالتْ فؤادي عن مَقَرِّ مكانهِ ... وأضحى جَناحي اليومَ ليسَ بِذي نهضِ
وقد كنتُ جلدًا في الحياة مُدَرَّئًا ... وقد كنتُ لبَّاس الرجال على البُغضِ

لقد استطاع الشاعر أن يصل فكرته " جذعه وألمه عند الموت " إلى متلقيه متلمسا دروب الفصاحة اللغوية ، ودلالات الألفاظ مع دقة التصوير مستعينا بجسره الفني في استخدام الأفعال الماضية " نزلت – أزالت – أضحي – كنت جلدا – كنت لباس الرجال على البغض " فهذا الحشد من الأفعال بصيغة الماضي تلقي ظلالا فنية على قسمات الشاعر الحزينة وحالته النفسية ،

فقد تجمعت هذه الدلالات المعنوية في سمط فني دقيق يؤكد حالة الشاعر وما نزل به من هم وكرب من شدة مصيبته مع ذل أسره حتى أن فؤاده يكاد يطير من بين جناحيه .

فقد استعان الشاعر بالتوكيد لإبراز معناه ؛ حيث استخدم " قد " ثلاث مرات " قد نزلت – قد كنت – قد كنت " إن اجترار الذكريات ، وحديثها لا يعينه عليه سوي الفعل الماضي ، ومن هذا النمط الفني يقول ابن خذاق :(٦٣)

قدْ رجَّلوني ومَا بالشَّعرِ مِن شَعَثٍ ... وألْبَسُوني ثِيابًا غيرُ أخْلاقِ

وطيَّبُوني وقَالُوا أيُّما رَجُلٍ ... وأدْرَجُوني كَأنِّي طَيُّ مِخْرَاقِ

وأرْسَلُوا فِتيةً مِن خَيْرِهم حَسَبًا ... ليُسنِدوا في ضَرِيحِ القَبْر أطْبَاقِي

وقسَّمُوا المَال وارفضَّت عوائدُهُم ... وقَال قَائِلُهُم مَات ابْنُ خَذَّاقِ

فالشاعر يعبر عن تجربته الحزينة مستعينا بالجملة الفعلية ملتمسا خطى الفعل الماضي في تصوير لوحة فنية رائعة الأسلوب في تتابع حركاتها في ثوب قشيب يحمل إبداعاً أدبيا في لحظة فارقة ، فقد استعان الشاعر بالأفعال " رجلوني – ألبسوني- طيبوني – قالوا – أدرجوني- أرسلوا – قسموا – ارفضت – قال قائلهم – مات ابن خذاق " إن هذا الحشد من الأفعال يحمل دلالة زمنية محددة برغم أن الشاعر ما زال حيا إلا أنه يسبح بخياله لاستجلاء ما سيكون . إن هذه الأفعال ، وما تحمله من حركة متوالية لميت في لحظاته الأخيرة ، وإعداد قبره إنما يُظهر بجلاء تلك النفس المضطربة حيث ألفاظها المتسارعة ، وكأنها أنفاس تتصاعد في جدة تلهث من أجل الحياة يمسك كل فعل زميله في ترابط دقيق ، واللافت للنظر أن الشاعر أدخل نفسه في هذه اللوحة " بالضمير المتصل" في حالة المفعول به المغلوب على أمره.

وهذا الشاعر خبيب بن عدي – رضي الله عنه – ينسج لوحة فنية لمشهد قتله ، وقد اجتمع عليه الأعداء يظهرون له العداوة والبغضاء ، وهو مقيد في

نخلة قد أعد لمقتله ، فيا لها من نفس تساقط أنفسا كتساقط حبات العقد من نظام بلا عقد . يقول :(٦٤)

لقدْ جَمَّعَ الأحزابُ حَولي وألَّبُـوا قَبائِلَهُم واستَجْمَعُـــوا كَلَّ مَجْمَعِ
وكلُّهم يُبدي العـداوةَ جَاهِـــدًا علـيَّ لأنِّـي فـي وثـــاقٍ بمضيـــعِ
وقد جمَّعُوا أبنَـاءَهم ونســـاءَهُم وقُرِّبتُ مِنْ جذعٍ طويـــلٍ مُمَنَّـعِ
إلى اللهِ أشكو غُربتي ثـم كُربتي ومَا جمَّعَ الأحزابُ لي عندَ مَصرعي

فقد استعان الشاعر بالدلالة الزمنية للفعل الماضي لإظهار ما في نفس قاتليه من ظلم وحقد وغل ليس هذا فحسب بل اجتمعت عليه غربة النفس ، وذل الأسر ، ومرارة القتل ، وتمكن العدو لعل هذا قد ظهر واضحا جليا في تتابع لوحات الصورة من تجمع الأحزاب ، وإحضار النساء والأبناء ، و قيده في جذع نخلة ، ثم شكواه من غربته وكربته ، وما أصابه في النهاية مستعينا بالتوكيد بقوله : "لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا كل مجمع – وقد قربوا أبناءهم ونساءهم – قد هملت " ثم تتوالى الأفعال في رسم الصورة بـ " قربت – أشكو – جمع الأحزاب- خيروني" هذه اللوحة يستطيع المرء أن يراها بعينيه ، ويتتبعها بسمعه ، فقد اجتمعت لها معايير الصورة الفنية متكاملة من خلال الآتي :

١- الشخصيات المحركة للأحداث : الشاعر والأعداء من رجال ونساء وأطفال .
٢- المكان : غربة في صحراء مقيد بجذع نخلة بين أيدي المشركين في مكة .
٣- الزمان : في نهار أحد الأيام .
٤- الحركة ظهرت من خلال حركة تجمع الرجال والأعداء للقتل ، وتستكمل اللوحة دلالاتها النفسية بحركة الدموع في عين الشاعر .

٥- الحوار : في حديث الأعداء مع الشاعر وتخييره بين القتل أو الشرك ، وحديثهم بينهم.

٦- اللون : يظهر ذلك من خلال ضوء النهار مع الدماء الناتجة عن قتل الشاعر بعد رميه بالسهام .

فهذه اللوحة تعاونت فيها عناصر شتى لإخراجها بهذا الثوب القشيب لتكشف ما في نفس صاحبها من مشاعر الألم .

سادسا : التمني في رثاء النفس :

كل إنسان له في الحياة أماني وأحلام يسعى خلفها متلمسا خطاها يسعد بتحقيقها ، ويحزن لفقدها ، وما أعظم الأماني في لحظات الخطر ! لعل هذا ما دفع الشعراء يلتمسون أمانيهم في أوقات محنتهم ووقوع مصيبة الموت لشعورهم بضيق الوقت لكنهم تمنوا المستحيل ؛ إذ طلبوا طول الحياة وامتداد الأجل فقد وقعت الواقعة . يقول زيد الخيل : (٦٥)

سقى الله مابين القفيل فطابةً فمَا دُونَ أرمام فما فوق منشدِ
هنالكَ لو أنّي مَرِضتُ لعَادَنِي عوائد من لم يشفِ مِنهُنَّ مجهدِ
فليت اللواتي عُدنني لم يعدنني وليت اللواتي غِبْنَ عني عُوَّدي

فالشاعر تجتر عليه الذكريات بآلامها حيث موطن الأهل ، وطيب المقام لعل هذا ما جعله يتذكر مدى احتفائهم به ، ورعايتهم له في مرضه وشدته ، لذا كانت أمنية العودة إليهم لكنه ما عاد يستطيع فكانت " ليت " وقد كررها الشعر مرتين في بيت واحد مما يشير إلى ما في نفسه من مطلب عز عليه تحقيقه فأضحى ذلك مصدر ألمه وحزنه وشقائه .

وقد استعان الشاعر مالك بن الريب بحرف التمني ليت ليبث من خلاله أمنية عز أن تلحق إنها أمنية الوصول إلى الديار موطن الأهل في الغضى . يقول :(٦٦)

ألا ليتَ شِعري هل أبيتـــنَّ ليلـــــةً بوادي الغضَى أُزجي القِلاصَ النواجيا؟
فليتَ الغضى لم يقطع الركـبُ عرْضَه وليـت الغضى ماشى الرِّكاب لياليـا
لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى مزارٌ ولكـنَّ الغضى ليـــس دانيـا

فالشاعر يدرك قيمة الأمنية واستحالة تحقيقها ، ويأسه من الوصول إليها فكانت ألفاظه ومعانيه تحمل آماله وآلامه فكانت أمنيته بـ " ليت " التي تكررت ثلاث مرات وذكره لموطن الأهل " الغضى " تكرر خمس مرات لعل هذا ما يظهر قسمات الحزن التي تركت آثارها على نفسه . إن شكوى الفراق والغربة تزيد النفس إيلاما ، ومن ثم ترنو أمنية لقاء الأهل في أوقات المحنة لما لها في النفس من أثر لا ينكر.

ومما لاشك فيه أن الأماني تداعب الإنسان ، وتمنيه النفس بقرب تحقيقها لكن الموت يقف بالمرصاد لتلك الأماني فيقضي عليها كما يقضي على صاحبها ، ومن ثم فإن الشاعر يدرك استحالة إدراك أمنيته ، لذا يلتمسها بحرف التمني " ليت " لما يحمله من دلالة استحالة تحقيقها ، وعجز النفس عن إدراكها ، ومن ذلك قوله تعالي في سورة النبأ : (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)(٦٧) إن الكافر يوم الحساب لا يمكنه العودة إلى الحياة الدنيا بعدما علم ما قدمت يداه ، ومن ثم كان التمني بـ " ليت " لدلالة استحالة تحقيق تلك الأمنية . بينما المرء إذا كان حيا فإن إدراكه لأمر من أمور الحياة مازال ممكنا ، فتكون أمنيته بالحرف " لعل " كما في قوله تعالى في سورة المؤمنون : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(٦٨)

لقد كان الخوف والحزن نظام جُمِعَ فيه شعراء رثاء النفس حتي تقاربت معانيهم وتآلفت تراكيبهم اللغوية إنها النفس في لحظاتها الأخيرة تعبر عن أسرارها ومكنون أغوارها .

خاتمة البحث

اقترب البحث من نهايته ، وأخذ يطرق أبواب خاتمته ؛ حيث كان مخور دراسته " الأنا في رثاء النفس في الشعر العربي القديم " وقد قسم البحث في مبحثين رئيسيين هما :

الأول : الرؤية الفكرية .

الثاني : التشكيل الفني في شعر رثاء النفس .

وقد دار في فلك كل مبحث مجموعة من المباحث الفرعية التي تعين على فهم طبائع الشعراء في لحظات النهاية ، وأثر ذلك على ألفاظهم ومعانيهم ، ومن ثم في طرائق تعبيرهم .

ومما لاشك فيه أن صوت الشاعر ، وقسماته النفسية أضحت ظاهرة جلية للعيان في أبياته ومن بين ثنايا كلماته وهو ينفث أحزانه ، ويعبر عن مكنون آلامه في لحظاته الأخيرة وفق نظم إبداعية يحسد عليها وهو يجمع شتات نفسه في أعظم لحظاتها .

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج تعد ثمرة هذه الدراسة وهي :

١- تعددت طرائق التعبير اللغوي ، وتنوعت الأدوات الفنية في تصوير محنة الشعراء على الرغم من وحدة المضمون ، فقد كان للموروث الفكري ، والتماسك النفسي عظيم الأثر على قدرة كل شاعر على التعبير عما يجيش في نفسه .

٢- تجلت أقسى معاناة الشاعر النفسية ، وظهرت آثارها في شعره ، وعلى قسماته النفسية وهو يواجه الموت في مكابدته الوحدة والغربة معا ، فكانت النيران التي تشعل قريحة الشاعر، فينبري معبرا عنها مصورا مأساته ووحدته بلا أنيس ، ولا جليس .

٣- شكلت لوحة الذكريات ملمحا فنيا مهما في شعر رثاء النفس ؛ إذ التمس فيها الشعراء ضالتهم النفسية حيث موطن الأهل ، وسعادة الصبا ، ومرح الشباب ، فكانت هذه الذكريات تنساب في أبياتهم لتشكل نسمة الهواء التي تفرج هم صاحبها وتعينه على ما فيه خاصة إذا ارتبطت بأحاديث الشجاعة والإقدام .

٤- تناثرت الحكمة في شعر رثاء النفس لما تمثله من تجارب الحياة ، وقد ارتبطت الحكمة في كثير منها بحديث المال والميراث .

٥- استطاع عدد من الشعراء أن يبرزوا المقارنة النفسية بينهم وبين أعدائهم ، ويصوروا لحظات انتقامهم منهم في لحظات قتلهم في مهارة ودربة توشحت بألفاظ حزينة معبرة اكتست بالدموع أحيانا من مثل " خبيب بن عدي رضي الله عنه - عبد يغوث – طرفة "

٦- تعددت الضمائر في النسيج الشعري وتنوعت دلالاتها المعنوية فتارة للشاعر وتارة للصحب ، وأخرى للعدو بين

متكلم ومخاطب وغائب ، وهو ما يعرف بالالتفات مما يشير إلى أننا أمام اضطراب نفسي ، وخوف شديد يعانيهما الشاعر في لحظة إبداعه .

٧- ندرة الصور الفنية في شعر رثاء النفس . قد يرجع ذلك للخوف الشديد والرهبة من الموت فلا وقت للخيال والتصوير بل الوقت للوصية والتذكير لكن الشاعر مالك بن الريب استطاع أن يعبر في تصوير فني قشيب عن نفسه ومعاناتها في مطولته.

والله ولي التوفيق.

الهوامش

١- د. عز الدين إسماعيل : التفسير النفسي للأدب . طبعة مكتبة غريب . القاهرة . الطبعة الرابعة ص ٥١

٢- د. شوقي ضيف : الرثاء . طبعة دار المعارف القاهرة . الطبعة الرابعة ص ٧

٣- حازم القرطاجني : منهاج الأدباء وسراج الأدباء : تحقيق محمد الحبيب بن خوجة . طبعة دار الغرب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م. ص ٣٥١

٤- سراج الدين محمد : الرثاء في الشعر العربي . طبعة دار الراتب الجامعية . بيروت .ص ٦

٥- إيزاك م. ماركس : التعايش مع الخوف " فهم القلق ومكافحته " ترجمة د. محمد عثمان نجاتي . طبعة دار الشروق ص ٤٥

٦- د. عز الدين إسماعيل . التفسير النفسي للأدب ص ٦٤

٧- د. شوقي ضيف : الرثاء ص ٣٠ يراجع

٨- ابن قتيبة : الشعر والشعراء . تحقيق أحمد شاكر . طبعة دار المعارف ١٩٥٨ م ٣٨٦/١

٩- المفضل الضبي : المفضليات . تحقيق أحمد محمد شاكر – عبد السلام هارون . طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٦٣م . ص ١٤٨ يخترمن : يقتطعن ويستأصلن .

١٠-إيزاك م. ماركس : التعايش مع الخوف ص ٣١

١١-المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٧

١٢-سراج الدين محمد :الرثاء في الشعر العربي ص ٥

١٣-لبيد بن ربيعة : الديوان . تحقيق إحسان عباس . طبعة وزارة الإرشاد . الكويت ١٩٦٢ م. ص ٢١٣

١٤-د. إبراهيم إبراهيم العطار : بناء القصيدة في ديوان الهذليين . رسالة دكتوراه مخطوطة . كلية الآداب جامعة المنصورة ٢٠٠٤م. ص ٢٩١

١٥-إيزاك م. ماركس : التعايش مع الخوف ص ٩٢

١٦-المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٦ – ١٥٧

١٧-المفضل الضبي : المفضليات ص ١٤٨ شرجع : خشب يشد بعضه بعضا كالسرير يحمل عليه الموتى . تصدعوا : تفرقوا . الشجو : الحزن .

١٨-مالك بن الريب : الديوان . تحقيق د. نوري حمودي القيسي من مجلة معهد المخطوطات العربية مج ١٥ جزء ١ ص ٨

١٩-د. إبراهيم إبراهيم العطار : بناء القصيدة في ديوان الهذليين ص٢٠٩

٢٠-د. شوقي ضيف : الرثاء ص ٣٠

٢١-امرؤ القيس : الديوان تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة دار المعارف . الطبعة الخامسة القاهرة

ص ٣٥٧ أول بيتين فقط : أجارتنا إن المزار قريب .....

: الديوان .شرح وتعليق عبد الرحمن المصطاوي . طبعة دار المعرفة . بيروت . الطبعة الثانية.

٢٠٠٢م. ص ٨٣ الأبيات الخمسة مجتمعة .عسيب : اسم جبل حيث مات امرؤ القيس ودفن فيه .

يؤوب : يعود .

٢٢- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩٠- ٩١ ٩٥ أشقر محبوك : المقصود حصانه .

٢٣-ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام . مؤسسة الرسالة دار البحوث العلمية الكويت . الطبعة الرابعة عشرة ١٩٨٥م. ص ١٧٧ ألبوا : جمعوا

٢٤-المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٨

٢٥- امرؤ القيس : الديوان تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٥٧ الفيظ : الهلاك والموت .

٢٦- ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام . ص ١٧٧ – ١٧٨

٢٧- عبد الله الواقدي : فتوح الشام . تحقيق هاني الحاج . طبعة المكتبة التوفيقية . القاهرة الجزء الأول ص ٤٠٥

٢٨-مالك بن الريب : الديوان . ص٩٢

٢٩-طرفة بن العبد : الديوان شرح الأعلم الشنتمري . تحقيق درية الخطيب – لطفي الصقال . طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠٠ م. ص ١٦٦

٣٠- المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٧ أسجحوا : أكرموا . بوائيا : سيء الخلق . تحربوني : حربه من باب طلب إذا أخذ ماله وتركه بلا شيء . شمصها . نفرها . نحار الجذور : يذبح الإبل رغبة في الكرم .

٣١-مالك بن الريب : الديوان . ص ٨٨ الغضى : شجر ينبت في الرمل ولا يكون غضى إلا في الرمل .

الركاب : الإبل .

٣٢-لبيد بن ربيعة : الديوان . ص ٢١٣ – ٢١٤

٣٣- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩٠ – ٩٥ وعر : عطل . قلوصي ، ناقتي . الجمع قلاص

٣٤- ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ١/ ٣٨٦ مخراق : ثوب يلف ثم يضرب به . العوائد : النسوة اللاتي يعدن المريض الواحدة عائدة . تولع : ولع بالشيء لزمه ولج فيه .

٣٥- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩٣ أدلجوا : الإدلاج السير أول اليل .

٣٦-ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ١/ ٣٨٦

٣٧- امرؤ القيس : الديوان تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٥٧

٣٨-امرؤ القيس : الديوان . شرح وتعليق عبد الرحمن المصطاوي . ص ٨٣

٣٩- المفضل الضبي : المفضليات ص ١٤٨

٤٠-صدر الدين بن الحسين البصري : الحماسة البصرية . تصحيح وتعليق . د. مختار الدين أحمد . طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الهند . الطبعة الأولى ١/ ٢٨١

٤١- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩١ – ٩٢

٤٢- ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ١/ ٣٨٦

٤٣-الجاحظ : الحيوان .تحقيق . عبد السلام هارون . طبعة البابي الحلبي ١٩٦٥ م. ٣/ ١٣١ – ١٣٢

٤٤-د. إبراهيم إبراهيم العطار : بناء القصيدة في ديوان الهذليين ص ١٩٠

٤٥- د. إبراهيم بن عبد الرحمن الخنيم : الصورة الفنية في الشعر العربي . طبعة الشركة العربية للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٩٦ م. ص ١٩٨

٤٦- د. عز الدين إسماعيل . التفسير النفسي للأدب ص ٥

٤٧- العسكري : الصناعتين . تحقيق د. مفيد قميحة . طبعة دار الكتب بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨١ م.ص٤٣٩

٤٨- المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٧

٤٩- ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام . ص ١٧٧

٥٠- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩١ – ٩٢ سهيل : نجم لايرى إلا من ناحية اليمن لذا يطلب من صحبه أن يرفعوه لعله يلتمس رؤية النجم .

٥١- لبيد بن ربيعة : الديوان . ص ٢١٣ – ٢١٤ الحول : العام .

٥٢- صدر الدين بن الحسين البصري : الحماسة البصرية . ١/ ٢٨١

٥٣- د. إبراهيم إبراهيم العطار : بناء القصيدة في ديوان الهذليين ص ١٩٢

٥٤- ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ١/ ٣٨٦

٥٥- مالك بن الريب : الديوان . ص ٨٨

٥٦- المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٥ – ١٥٦

٥٧- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩٠

٥٨- المفضل الضبي : المفضليات ص ١٥٥

٥٩- صدر الدين بن الحسين البصري : الحماسة البصرية . ١/ ٢٨١

٦٠- مالك بن الريب : الديوان . ص ٩٣

٦١- علي الجارم : الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية . مجلة مجمع اللغة العربية . الجزء السابع . مطبعة وزارة الأوقاف العمومية ١٩٥٣ م. ص ٣٤٧

٦٢- طرفة بن العبد : الديوان ص١٦٦

٦٣- ابن قتيبة : الشعر والشعراء . ١/ ٣٨٦

٦٤- ابن هشام : تهذيب سيرة ابن هشام . ص ١٧٧

٦٥- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني . تحقيق أحمد البجاوي . إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٣ م. الجزء السابع عشر ص ٢٤٩

٦٦- مالك بن الريب : الديوان . ص ٨٨

٦٧- القرآن الكريم :سورة " النبأ " الآية ٤٠

٦٨- القرآن الكريم : سورة " المؤمنون " الآية ١٠٠

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- د. إبراهيم إبراهيم العطار :

٢- بناء القصيدة في ديوان الهذليين : رسالة دكتوراه – كلية الآداب جامعة المنصورة ٢٠٠٤ م .

- د. إبراهيم بن عبد الرحمن الغنيم :

٣- الصورة الفنية في الشعر العربي . طبعة الشركة العربية للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.

- الأصفهاني : أبو الفرج

٤- الأغاني . تحقيق أحمد البجاوي . إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . الجزء السابع عشر .القاهرة ١٩٩٣ م.

- امرؤ القيس :

٥- الديوان : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة دار المعارف . القاهرة . الطبعة الخامسة .

٦- الديوان : شرح وتعليق عبد الرحمن المصطاوي .طبعة دار المعرفة . بيروت
الطبعة الثانية. ٢٠٠٢م.

- إيزاك م. ماركس :

٧- التعايش مع الخوف " فهم القلق ومكافحته " ترجمة د. محمد عثمان نجاتي . طبعة دار الشروق .

- البصري : صدر الدين بن الحسين

٨- الحماسة البصرية . تصحيح وتعليق . د. مختار الدين أحمد . طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الهند . الطبعة الأولى .

- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر

٩- الحيوان .تحقيق . عبد السلام هارون . طبعة البابي الحلبي ١٩٦٥ م.

- سراج الدين محمد :

١٠-الرثاء في الشعر العربي . طبعة دار الراتب الجامعية . بيروت .

- د.شوقي ضيف :

١١- الرثاء . طبعة دار المعارف القاهرة . الطبعة الرابعة .

- طرفة بن العبد :

١٢- الديوان : شرح الأعلم الشنتمري . تحقيق درية الخطيب – لطفي الصقال .

طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠٠م .

- د. عز الدين إسماعيل :

١٣- التفسير النفسي للأدب . طبعة مكتبة غريب . القاهرة . الطبعة الرابعة .

- العسكري : أبو هلال

١٤- الصناعتين . تحقيق د. مفيد قميحة . طبعة دار الكتب بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

- علي الجارم :

١٥- الجملة الفعلية أساس التعبير في اللغة العربية . مجلة مجمع اللغة العربية . الجزء السابع . مطبعة وزارة الأوقاف العمومية ١٩٥٣ م.

- ابن قتيبة :

١٦- الشعر والشعراء . تحقيق أحمد شاكر . طبعة دار المعارف ١٩٥٨ م .

- القرطاجني : حازم

١٧- منهاج الأدباء وسراج الأدباء : تحقيق محمد الحبيب بن خوجة . طبعة دار الغرب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثالثة ١٩٨٦ م.

- لبيد بن ربيعة :

١٨- الديوان . تحقيق إحسان عباس . طبعة وزارة الإرشاد . الكويت ١٩٦٢ م.

- مالك بن الريب :

١٩- الديوان . تحقيق د. نوري حمودي القيسي من مجلة معهد المخطوطات العربية مج ١٥ جزء ١.

- المفضل الضبي :

٢٠- المفضليات . تحقيق أحمد محمد شاكر – عبد السلام هارون . طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٦٣ م .

- ابن منظور المصري :

٢١- لسان العرب : تحقيق عبد الله علي الكبير – محمد حسب الله – هاشم محمد الشاذلي . طبعة دار المعارف ١٩٨١م.

- ابن هشام :

٢٢- تهذيب سيرة ابن هشام . مؤسسة الرسالة دار البحوث العلمية الكويت . الطبعة الرابعة عشرة ١٩٨٥ م .

- الواقدي : عبد الله

٢٣- الشام . تحقيق هاني الحاج . طبعة المكتبة التوفيقية . القاهرة الجزء الأول .